الفئة الباغية



21 شوال 1438 هـ - 15 / 7 / 2017 م



بسم الله الرحمن الرحيم

إِنِ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتمْ مُسْلِمُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

تمهيد

يأتي هذا البحث استكمالاً للأفكار والموضوعات التي طُرحت في: (عقيدتنا الجهادية، انحرافات في الحركة الإسلامية، منازعة أولي الأمر، وإن ضرب ظهرك، معالم في الثورة، الثورة الإسلامية... إلخ)، وقد ناقشت فيه – والفضل من الله – هذه الموضوعات:

- **فتوى العلاّمة ابن تيمية – رحمه الله – في الطوائف الممتنعة، وقراءة تاريخية لواقع هذه الفتوى.**
- **قضية مانعي الزكاة، والتحليل التاريخي لها، وموقف المذاهب الفقهية من قضية مانعي الزكاة.**
- **حد الخوارج، وحد المرجئة.**
- **السلوك النفسي للخوارج والمرجئة.**
- **موضوع الإيمان، والتكفير.**
- **أحوال المنافقين.**
- **شرعية الحكم، ولمن تكون؟**
- **ضرورة وشرعية مواجهة الفئة الباغية.**
- **الثوابت والمحاذير أثناء مواجهة الفئة الباغية.**

والله أسأل أن يكون هذا البحث خطوة راشدة على طريق الصواب، وأن ينفع به الشباب الحر الذي يحترق لنصرة دينه وأمته.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

الطائفة الممتنعة، وفتوى ابن تيمية

للعلاّمة ابن تيمية فتوى شهيرة ضد التتار، وهذا بعض ما جاء فيها:

"مسألة أجناد يمتنعون عن قتال التتار

الصواب أن هؤلاء ليسوا من البغاة المتأولين، فإن هؤلاء ليس لهم تأويل سائغ أصلا، وإنما هم من جنس الخوارج المارقين، ومانعي الزكاة، وأهل الطائف، والحرمية، ونحوهم ممن قوتلوا على ما خرجوا عنه من شرائع الإسلام، وهذا موضع اشتبه على كثير من الناس من الفقهاء المصنفين في قتال أهل البغي جعلوا قتال مانعي الزكاة، وقتال الخوارج، وقتال علي لأهل البصرة، وقتاله لمعاوية وأتباعه من قتال أهل البغي وذلك كله مأمور به، وفرعوا مسائل ذلك تفريع من يرى ذلك بين الناس، وقد غلطوا بل الصواب ما عليه أئمة الحديث، والسنة، وأهل المدينة النبوية، كالأوزاعي، والثوري، ومالك، وأحمد بن حنبل، وغيرهم، أنه يفرق بين هذا وهذا، فقتال علي للخوارج ثابت بالنصوص الصريحة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – باتفاق المسلمين." [الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ج3، ص 560]

"والعلماء لهم في قتال من يستحق القتال من أهل القبلة طريقان: منهم من يرى قتال علي يوم حروراء، ويوم الجمل، وصفين، كله من باب قتال أهل البغي، وكذلك يجعل قتال أبي بكر لمانعي الزكاة، وكذلك قتال سائر من قوتل من المنتسبين إلى القبلة، كما ذكر ذلك من ذكره من أصحاب أبي حنيفة، والشافعي، ومن وافقهم من أصحاب أحمد وغيرهم، وهم متفقون على أن الصحابة ليسوا فساقا بل هم عدول.

فقالوا: إن أهل البغي عدول مع قتالهم، وهم مخطئون خطأ المجتهدين في الفروع، وخالفت في ذلك طائفة كابن عقيل وغيره.

فذهبوا إلى تفسيق أهل البغي، وهؤلاء نظروا إلى من عدوه من أهل البغي في زمنهم، فرأوهم فساقا، ولا ريب أنهم لا يدخلون الصحابة في ذلك، وإنما يفسق الصحابة بعض أهل الأهواء من المعتزلة ونحوهم، كما يكفرهم بعض أهل الأهواء من الخوارج والروافض وليس ذلك من مذهب الأئمة والفقهاء أهل السنة والجماعة، ولا يقولون: إن أموالهم معصومة كما كانت، وما كان ثابتا بعينه رد إلى صاحبه، وما أتلف في حال القتال لم يضمن، حتى إن جمهور العلماء يقولون: لا يضمن لا هؤلاء ولا هؤلاء.

كما قال الزهري: وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – متوافرون، فأجمعوا أن كل مال أو دم أصيب بتأويل القرآن فإنه هدر، وهل يجوز أن يستعان بسلاحهم في حربهم إذا لم يكن إلى ذلك ضرورة على وجهين في مذهب أحمد يجوز والمنع قول الشافعي والرخصة قول أبي حنيفة، واختلفوا في قتل أسرهم واتباع مدبرهم والتذفيف على جريحهم إذا كان لهم فئة يلجئون إليها، فجوز ذلك أبو حنيفة، ومنعه الشافعي، وهو المشهور في مذهب أحمد وفي مذهبه وجه أنه يتبع مدبرهم من أول القتال، وأما إذا لم يكن لهم فئة، فلا يقتل أسير، ولا يذفف على جريح، كما رواه سعيد وغيره عن مروان بن الحكم قال: خرج صارخ، لعله يوم الجمل، لا يقتلن مدبر، ولا يذفف على جريح ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن.

فمن سلك هذه الطريقة فقد يتوهم أن هؤلاء التتار من أهل البغي المتأولين ويحكم فيهم بمثل هذه الأحكام، كما أدخل من أدخل في هذا الحكم مانعي الزكاة والخوارج وسنبين فساد هذا التوهم إن شاء الله تعالى.

والطريقة الثانية أن قتال مانعي الزكاة، والخوارج، ونحوهم: ليس كقتال أهل الجمل وصفين، وهذا هو المنصوص عن جمهور الأئمة المتقدمين وهو الذي يذكرونه في اعتقاد أهل السنة والجماعة، وهو مذهب أهل المدينة: كمالك، وغيره، ومذهب أئمة الحديث كأحمد وغيره، وقد نصوا على الفرق بين هذا وهذا في غير موضع حتى في الأموال فإن منهم من أباح غنيمة أموال الخوارج." [الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ج3، ص 537]

"وقد اتفق الصحابة والأئمة بعدهم على قتال مانعي الزكاة وإن كانوا يصلون الخمس ويصومون شهر رمضان وهؤلاء لم يكن لهم شبهة سائغة[1]، فلهذا كانوا مرتدين وهم يقاتلون على منعها، وإن أقروا بالوجوب كما أمر الله." [الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ج3، ص 541]

"وإذا كان السلف قد سموا مانعي الزكاة مرتدين مع كونهم يصومون ويصلون، ولم يكونوا يقاتلون جماعة المسلمين، فكيف بمن صار مع أعداء الله ورسوله قاتلا للمسلمين مع أنه والعياذ بالله لو استولى هؤلاء المحاربون لله ورسوله المحادون لله ورسوله المعادون لله ورسوله، على أرض الشام ومصر. في مثل هذا الوقت لأفضى ذلك إلى زوال دين الإسلام ودروس شرائعه.

[1] كان لهم شبهات وتأويلات سنبينها لاحقاً – إن شاء الله – على أن قول العلاّمة ابن تيمية: "ولم يكن لهم شبهة سائغة" قد يُفهم منها اعتقاده أنه في حالة الشبهة لا يكونوا مرتدين.

أما الطائفة بالشام ومصر ونحوهما فهم في هذا الوقت المقاتلون عن دين الإسلام، وهم من أحق الناس دخولا في الطائفة المنصورة التي ذكرها النبي ﷺ بقوله في الأحاديث الصحيحة المستفيضة عنه" [الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ج3، ص 548]

فالطائفة الممتنعة في فكر العلاّمة ابن تيمية – رحمه الله – هم التتار المحاربون، وكان ينظر إليهم من زاويتين:

الأولى: أنهم نطقوا الشهادتين، ولم يلتزموا من شرائع الإسلام بشيء. والثانية: أنهم غزوا بلاد المسلمين، وفتكوا بأهل الإسلام بما لم يفعله الكفار ! فجاء السؤال له عن "مشروعية" قتال هذه الفئة هل تقاتل كقتال أهل البغي أم أهل الردة؟ فكان اختياره أنهم أهل ردة ! يجب قتالهم تحت راية المماليك حينها، كما جاء في رسالته "لما قدم التتار إلى حلب" ورسالته للملك الناصر محمد بن قلاوون، وقد أوجب ابن تيمية قتال هؤلاء التتار دفاعاً عن الإسلام وأرضه، وكان يسمي التتار "العدو المفسد الخارج عن ملة الإسلام".

وقد أثنى ثناء حميداً على أهل مصر والشام، وحثهم على قتال التتار، وجعلهم هم "الطائفة المنصورة" و"كتيبة الإسلام"[1] وحصن الدفاع الأخير عنه من هجمات التتار.

وحكم على من يذهب من جند المسلمين [من المماليك] إلى التتار بزعم أنهم مسلمون – سواء أكان مكرهاً أم غير مكره – بأنه واجب قتالهم، وقال: "نحن علينا أن نقاتل العسكر [التتار] جميعه إذ لا يتبين المكره من غيره". وقد استنكر بشدة على من يقول عن التتار أنهم "طائفة بغي".

ولو أردنا وضع فتوى ابن تيمية في سياقها السياسي والتاريخي:

نجد أن المعركة كانت تدور بين "المغول – التتار" بقيادة محمود غازان، وبين "المماليك" بقيادة الناصر محمد بن قلاوون.

محمود غازان:

هو من سلاسة الملوك، درس العديد من الأديان (البوذية، والمسيحية، وديانات آسيا القديمة "شامانية"]، لا يتعصب لدين، يُقال أنه دخل الإسلام طمعاً في نصرة بعض قادة المغول المسلمين، لم يفهم رسالة الإسلام على وجهها الصحيح، لا

[1] [الفتاوى: ج28، ص531، 534]

يرى أهمية كبيرة لشريعة الإسلام في الأمور السياسية والحربية، ولا يعرف مقاصد هذه الرسالة، سيرته سيرة ملك يسعى لتوسيع رقعة ملكه دون النظر في مسألة الحلال والحرام، لذا فقد سعى بكل قوة للتحالف مع الصليبيين لغزو بلاد الشام ومصر وهو مسلم !، وكان ألد أعداءه هم المماليك، وقد حصل لقاء بين وزيره وبين ابن تيمية يطالبه فيه بالكف عن دماء المسلمين، وعدم الفتك بهم.

فنستطيع أن نطلق عليه بمصطلحاتنا المعاصرة أنه "ملك علماني" يسعى بكل براجماتية ميكافيلية لترسيخ وتوسيع رقعة ملكه، وعلماني لا يرى في الإسلام سوى بعض الشعائر – وقد بنى مسجداً باسمه ! – لا يتوقف عند حدود الحلال والحرام فيما يخص سياسته في الحكم أو في الحرب.

هذه الشخصية تكاد تكون متكررة كثيراً جداً في صفحات التاريخ، ونجد بعض أمثالها في الأندلس كما حكى العلامة ابن حزم – رحمه الله – (المتوفى: 456 هـ) فقال عن سلاطين عصره: " اللهم إنا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور – يتركونها عما قريب – عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم، وبجمع أموال ربما كانت سبباً إلى انقراض أعمارهم وعوناً لأعدائهم عليهم عن حياطة ملتهم التي بها عزوا في هاجلتهم وبها يرجون الفوز في آجلتهم ... " "وهي فتنة سوء أهلكت الأديان إلا من وقى الله تعالى من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب. وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه أولها عن آخرها محارب لله تعالى ورسوله وساع في الأرض بفساد، والذي ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية ... وإباحتهم لجندهم قطع الطريق ... ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله، غرضهم فيها استدام نفاذ أمرهم ونهيهم.... ثم يقول: " والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم.... وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه " [رسائل ابن حزم]

فهذه الشخصية لحمها ودمها وقوام وجودها والموجه لها في كل حياتها هو "شهوة المُلك" وفتنته.

وهناك كتابات أخرى تدافع عن محمود غازان كتبها وزيره رشيد الدين فضل الله الهمذاني في كتابه "جامع التواريخ" فتقول بعضها: "بتولي السلطان محمود غازان عرش الدولة الإلخانية سنة (694هـ= 1295) بدأ عصر جديد في تاريخ

المغول؛ حيث كان أول مرسوم يصدره ينص على أن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة، وبإسلامه أسلم أكثر من مائة ألف شخص في فترة قصيرة، وانقطعت الروابط التي كانت تربطه ببلاط الخاقان الأعظم للمغول في الصين.

وأدى اعتناق محمود غازان الإسلام عن إيمان وإخلاص إلى قيامه بعدد من الإصلاحات، تناولت شئون الإدارة والمال والاقتصاد والقضاء والعمران والتشييد في بلاده، وأفسحت لاسمه مكانًا بارزًا في أبطال التاريخ وكبار المصلحين وصناع الحضارة.

واشتهر غازان بحبه للثقافة والمعرفة، وشغفه بالتاريخ، وإتقانه للفارسية، وعنايته بالفنون والصناعات اليدوية، واشتغل في فترة من حياته بالكيمياء، وكان له معمل في قصره يقضي فيه أوقاتًا طويلة بين كتبه وتجاربه، ومن أعماله التي تدل على حبه للعمارة والبناء قيامه بتجميل عاصمة مملكته "تبريز" بأبنية فخمة تشمل مسجدًا عظيمًا، ومدرسة كبيرة، ودارا للكتب، ودارًا لحفظ الدفاتر والقوانين التي استنها، ومرصدا فلكيًا، وبستانًا، ومستشفى وخانقاة للمتصوفة.

فغازان نقطة تحول فاصلة في تاريخ الدولة الإيلخانية التي أسسها هولاكو في إيران والعراق؛ حيث انتهت بإسلامه فترة حكم السلاطين الوثنيين للدولة، وانقطعت الروابط التي كانت تربط دولتهم ببلاط الخاقان الأعظم في الصين، وغدا الإسلام الدين الرسمي للدولة حتى انهيار أسرة الإيلخانات سنة (756هـ=1355م)." ولا تخلو هذه الكتابات من التحيز والتعصب والتبرير للجرائم التي حصلت.

يقول رشيد الدين على لسان غازان: "إنه لا يخفى على الجميع أن غايتنا من تنفيذ هذه الأوامر ليست إلا رعاية جانب الحق – جل وعلا – وتقوية الشرع الإسلامي – لا زال معظماً – وبسط العدل وراحة الرعية" وفي قراره القاضي بتحريم التعامل بالربا، كان يرد غازان على معارضيه بقوله: "إن الله تعالى ورسوله عليه السلام يعلمان مصالح العالم أفضل منا. وهذا ما أمر به الله ورسوله، ولن أسمع قط كلاماً يخالف ذلك" [جامع التواريخ، رشيد الدين الهمذاني]

على إننا نجد للعلاّمة ابن حجر كلاماً قريباً من ذلك، فيقول: "كَانَ جُلُوسه على تخت الْملك سنة 693 وَحسن لَهُ نَائِبه نوروز الْإِسْلَام فَأسلم فِي سنة 94 ونثر الذَّهَب وَالْفِضَّة واللؤلؤ على رُؤْس النَّاس وَفَشَا بذلك الْإِسْلَام فِي التتار وَكَانَ فِي مَمْلَكَته خُرَاسَان بأسرها والعرفان وفارس والروم وأذربيجان والجزيرة وكان إِسْلَامه على يَد الشَّيْخ صدر الدّين إِبْرَاهِيم بن

سعد الله بن حمويه الجيوينى وعمره يَوْمئِذٍ بضع وَعِشْرُونَ سنة وَكَانَ يَوْم إِسْلَامه يَوْمًا عَظِيما دخل الْحمام فاغتسل وَجمع مَجْلِسا وَشهد شَهَادَة الْحق فِي الْمَلأ الْعَام فَكَانَ لمن حضر ضجة عَظِيمَة وَذَلِكَ فِي شعْبَان سنة 4 ولقنه نوروز شَيْئا من الْقُرْآن وَعلمه الصَّلَاة وَصَامَ رَمَضَان كل السّنة وَكَانَ غازان يتَكَلَّم بِالْفَارِسِيَّةِ مَعَ خواصه وَيفهم أَكثر مَا يُقَال لَهُ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيّ وَلما ملك أَخذ نفسه بطرِيق جده الْأَعْلَى جنكز خَان وَصرف همته إِلَى إِقَامَة العساكر وسد الثغور وَعمارَة الْبِلَاد والكف عن سفك الدِّمَاء... ثمَّ طرق الْبِلَاد الشامية فِي سنة 699 هـ فكَانَت الْوَقْعَة العظيمة بوادي الخزندار وَالظفر لغازان وَدخل دمشق وخطب لَهُ على الْمِنْبَر واستمرت من ربيع الآخر إِلَى رَجَب وَحصل في ذَلِك الْوَقْعَة لأهل الشَّام من سبي الْحرم والذرية وتعذيب الْخلق بِسَبَب الْمَال مَالا يُوصف وَهلك خلائق من الْعَذَاب والجوع ثمَّ رَجَعَ ثمَّ عَاد مرّة أُخْرَى سنة سَبْعمِائة فأوقع بِبِلَاد حلب أشهرا ثمَّ جهز قطلوشاه بالعساكر ليغزيهم على حلب وَأمره أَن لَا يُجَاوز حمص فَلَمَّا حضر وجد العساكر قد تقهقرت فَجَاز الْبِلَاد إِلَى أَن وصل إِلَى دمشق وَاسْتمرّ طَالبا مصر فَكَانَت الكسرة الْعَظِيمَة عَلَيْهِ فِي وقْعَة شقحب وَذَلِك فِي سنة 702، وحمل غازان على نَفسه بِسَبَب ذَلِك فلم يلبث أن مات" [الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلاني]

وأما العلاّمة الذهبي فيقول: "دخل في الإِسْلَام قازانُ بْنُ أرغون بْن أبغا بْن هولاكو ملك التّتار بوساطة نوروز التُركي وزيره ومدبّر مملكته وزوج عمّته واسمه بالعربيّ محمود. أسلم فِي شعبان بخُراسان على يد الشَّيْخ الكبير المحدث صدر الدين إبراهيم ابن الشيخ سعد الدين ابن حَمُّوَيْه الجُوينيّ. وذلك بقرب الرّيّ بعد خروجه من الحمّام وجلس مجلسًا عامًّا فتلفّظ بشهادة الحق وهو يتبسم ووجهه يستنير ويتهلّل. وكان شابًّا، أشقر، مليحًا، له إذ ذاك بضعٌ وعشرون سنة. وضجّ المسلمون حوله عندما أسلم ضجّة عظيمة من المُغل والعجم وغيرهم ونثر على الخَلق الذّهب واللؤلؤ. وكان يومًا مشهودًا. وفشى الإِسْلَام فِي جيشه بحرص نوروز فإنّه كان مسلما خيّرًا صحيح الإسلام، يحفظ كثيرًا من القرآن والرّقائق والأذكار. ثُمَّ شرع نوروز يلقّن الملك غازان شيئًا من القرآن ويجتهد عليه. ودخل رمضان فصامه ولولا هذا القدر الَّذِي حصل له من الإسلام والا كان قد استباح الشَّام لّما غلب عليه، فلله الحمد والمِنّة." [تاريخ الإسلام للذهبي، ج15، ص690]

***

ومن الأهمية بمكان أن نذكر نوعية الرسائل التي دارت بين محمود غازان، وبين السلطان محمد بن قلاوون حينها للوقوف عن شيء من شخصية كل منهما:

جاء في كتاب "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" لأحمد القلقشندي (المتوفى: 821هـ):

"بسم الله الرحمن الرحيم

بقوّة الله تعالى وميامين الملّة المحمّدية فرمان السلطان محمود غازان ليعلم السلطان الملك الناصر، أنه في العام الماضي، بعض عساكرهم المفسدة دخلوا أطراف بلادنا، وأفسدوا فيها لعناد الله وعنادنا، كماردين ونواحيها، وجاهروا الله بالمعاصي فيمن ظفروا به من أهليها، وأقدموا على أمور بديعة، وارتكبوا آثاما شنيعة، من محاربة الله وخرق ناموس الشّريعة، فأنفنا من تهجّمهم، وغرنا من تقحّمهم، وأخذتنا الحميّة الإسلامية فجذبتنا إلى دخول بلادهم، ومقابلتهم على فسادهم، فركبنا بمن كان لدينا من العساكر، وتوجّهنا بمن اتفق منهم أنّه حاضر، وقبل وقوع الفعل منا، واشتهار الفتك عنا، سلكنا سنن سيّد المرسلين، واقتفينا آثار المتقدّمين، واقتدينا بقول الله: {لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} وأنفذنا صحبة يعقوب السكرجي جماعة من القضاة، والأئمة الثّقات، وقلنا هذا نذير من النذر الأولى أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة فقابلتم ذلك بالإصرار، وحكمتم عليكم وعلى المسلمين بالإضرار، وخالفتم سنن الملوك، في حسن السّلوك، وصبرنا على تماديكم في غيّكم، وخلودكم إلى بغيكم، إلى أن نصرنا الله، وأراكم في أنفسكم قضاه أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله وظننّا أنهم حيث تحقّقوا كنه الحال، وآل بهم الأمر إلى ما آل، أنهم تداركوا الفارط من أمرهم، ورتقوا ما فتقوا بغدرهم، ووجّه إلينا وجه عذرهم، فإنهم ربما سيّروا إلينا حال دخولهم إلى الدّيار المصرية، رسلاً لإصلاح تلك القضية، فبقينا بدمشق غير مثخثحين، وتثبّطنا تثبّط المتمكّنين، فصدّهم عن السعي في صلاح حالهم التّواني، وعلّقوا نفوسهم عن اليقين بالأماني، ثم بلغنا بعد عودنا إلى بلادنا أنهم ألقوا في قلوب العساكر والعوامّ، وراموا جبر ما أوهنوا من الإسلام، أنهم فيما بعد يلقوننا على حلب والفراه، وأنّ عزمهم مصرّ على ذلك لا سواه، فجمعنا العساكر وتوجهنا للقاهم، ووصلنا الفرات مرتقبين ثبوت دعواهم، وقلنا لعلّ وعساهم، فما لمع لهم بارق، ولا ذرّ شارق، فقدمنا إلى أطراف حلب، وعجبنا من تبطّيهم غاية العجب، وفكرنا في أنه متى تقدّمنا بعساكرنا الباهرة، وجموعنا العظيمة القاهرة، ربّما أخرب البلاد مرورها، وبإقامتهم فيها فسدت أمورها، وعمّ الضرر العباد، والخراب البلاد، فعدنا بقيا عليها، ونظرة لطف من الله إليها. وها نحن الآن مهتمّون بجمع العساكر المنصورة، ومشحذون غرار عزائمنا المشهورة، ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحصار، وعازمون بعد الإنذار {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} وقد سيّرنا حاملي هذا الكتاب الأمير الكبير ناصر الدين علي خواجا، والإمام العالم ملك القضاة جمال الدين موسى بن يوسف، وقد حمّلنا هما كلاما شافهنا هما به، فلتثقوا بما تقدّمنا به إليهما فإنهما من الأعيان، المعتمد عليهما في الديوان، كما قال الله تعالى: {فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم

أجمعين} فلتعدّوا لنا الهدايا والتّحف، فما بعد الإنذار من عاذر، وإن لم تتداركوا الأرض فدماء المسلمين وأموالهم مطلولة بتدبيرهم، ومطلوبة عند الله في طول تقصيرهم.

فليمعن السلطان لرعيّته النظر في أمره، فقد قال صلّى الله عليه وسلّم «من ولّاه الله أمرا من أمور هذه الأمّة فاحتجب دون حاجتهم وخلّتهم، احتجب دون حاجته وخلّته وفقره» . وقد أعذر من أنذر، وأنصف من حذّر، والسّلام على من اتبع الهدى- في العشر الأوسط من شهر رمضان سنة سبعمائة- بجبال الأكراد، والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسّلام على سيدنا محمد المصطفى وآله وصحبه وعترته الطاهرين." [صبح الأعشى، ج8، ص70]

وكان جواب السلطان محمد بن قلاوون – رحمه الله – عليه كالتالي:

"مما كتب به عن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، في المحرّم سنة إحدى وسبعمائة وهي:

بسم الله الرّحمن الرّحيم بقوّة الله تعالى وميامين الملّة المحمدية أمّا بعد حمد الله الذي جعلنا من السابقين الأوّلين، الهادين المهتدين؛ التابعين لسنّة سيد المرسلين، بإحسان إلى يوم الدين؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الذين فضّل الله من سبق منهم إلى الإيمان في كتابه المكنون. فقال سبحانه وتعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ}

بإقبال دولة السلطان الملك الناصر كلام محمد بن قلاوون.

فليعلم السلطان المعظّم محمود غازان أنّ كتابه ورد، فقابلناه بما يليق بمثلنا لمثله من الإكرام، ورعينا له حقّ القصد فتلقيناه منّا بسلام؛ وتأمّلناه تأمّل المتفهّم لدقائقه، المستكشف عن حقائقه؛ فألفيناه قد تضمّن مؤاخذات بأمورهم بالمؤاخذة عليها أحرى، معتذرا في التعدّي بما جعله ذنوبا لبعض طالب بها الكلّ، والله تعالى يقول: {وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى} أمّا حديث من أغار على ماردين من رجالة بلادنا المتطرّفة وما نسبوه إليهم من الأمور البديعة، والآثام الشّنيعة؛ وقولهم: إنهم أنفوا من تهجّمهم، وغاروا من تقحّمهم؛ واقتضت الحميّة ركوبهم في مقابلة ذلك، فقد تلمّحنا هذه الصورة التي أقاموها عذرا في العدوان، وجعلوها سببا إلى ما ارتكبوه من طغيان؛ والجواب عن ذلك أنّ الغارات من الطّرفين و لم يحصل من المهادنة والموادعة ما يكفّ يدنا الممتدّة، ولا يفترّ هممها المستعدّة؛ وقد كان آباؤكم وأجدادكم على ما علمتم من الكفر والشّقاق، وعدم المصافاة للإسلام والوفاق؛ ولم يزل ملك ماردين ورعيّته منفّذين ما يصدر من الأذى للبلاد والعباد عنهم، متولّين كبر نكرهم؛ والله تعالى يقول: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} وحيث جعلتم هذا ذنبا للحميّة الجاهليّة، وحاملا على الانتصار الذي زعمتم أنّ همّتكم به مليّة؛ فقد كان هذا القصد الذي ادّعيتموه يتمّ بالانتقام من أهل تلك الأطراف التي أوجب ذلك فعلها، والاقتصار على أخذ الثأر ممن ثار، اتباعا لقوله تعالى: {وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها} لا أن

تقصدوا الإسلام بالجموع الملفّقة على اختلاف الأديان، وتطأوا البقاع الطاهرة بعبدة الصّلبان؛ وتنتهكوا حرمة البيت المقدّس الذي هو ثاني بيت

الله الحرام، وشقيق مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ وإن احتججتم بأنّ زمام تلك الغارة بيدنا، وسبب تعدّيهم من سنّتنا؛ فقد أوضحنا الجواب عن ذلك، وأنّ عدم الصّلح والموادعة أوجب سلوك هذه المسالك.

وأما ما ادّعوه من سلوك سنن المرسلين، واقتفاء آثار المتقدّمين، في إنفاذ الرّسل أوّلا، فقد تلمحنا هذه الصّورة، وفهمنا ما أوردوه من الآيات المسطورة؛ والجواب عن ذلك أنّ هؤلاء الرّسل ما وصلوا إلينا إلا وقد دنت الخيام من الخيام، وناضلت السهام السّهام، وشارف القوم، ولم يبق للّقاء إلا يوم أو بعض يوم؛ وأشرعت الأسنّة من الجانبين، ورأى كلّ خصمه رأى العين؛ وما نحن ممن لاحت له رغبة راغب فتشاغل عنها، ولا ممن يسالم فيقابل ذلك بجفوة النّفار، والله تعالى يقول: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا} كيف والكتاب بعنوانه! وأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: «ما أضمر إنسان شيئا إلا ظهر في صفحات وجهه وفلتات لسانه» . ولو كان حضور هؤلاء الرسل والسّيوف وادعة في أغمادها، والأسنّة مستكنّة في أعوادها؛ والسّهام غير مفوّقة، والأعنّة غير مطلقة؛ لسمعنا خطابهم، وأعدنا جوابهم.

وأما ما أطلقوا به لسان قلمهم، وأبدوه من غليظ كلمهم؛ في قولهم: فصبرنا على تماديكم في غيّكم، وإخلادكم إلى بغيكم؛ فأيّ صبر ممن أرسل عنانه إلى المكافحة، قبل إرسال رسل المصالحة؛ وجاس خلال الدّيار، قبل ما زعمه من الإعذار والإنذار؟ وإذا فكّروا في هذه الأسباب، ونظروا ما صدر عنهم من خطاب، علموا العذر في تأخير الجواب، وما يتذكّر إلا أولوا الألباب.

وأمّا ما تبجّحوا به مما اعتقدوه من نصرة، وظنّوه من أنّ الله جعل لهم على حزبه الغالب في كلّ كرة الكرّة؛ فلو تأمّلوا ما ظنّوه ربحا لوجدوه هو الخسران المبين، ولو أنعموا النظر في ذلك لما كانوا به مفتخرين؛ ولتحققوا أنّ الذي اتّفق لهم كان غرما لا غنما، وتدبّروا معنى قوله تعالى: {إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً} ولم يخف عنهم ما نالته السيوف الإسلامية منهم، وقد رأوا عزم من حضر من عساكرنا التي لو كانت مجتمعة عند اللّقاء ما ظهر خبر عنهم؛ فإنا كنّا في مفتتح ملكنا، ومبتدإ أمرنا، حللنا بالشام للنظر في أمور البلاد والعباد؛ فلما تحقّقنا خبركم، وقفونا أثركم؛ بادرنا نقدّ أديم الأرض سيرا، وأسرعنا لندفع عن المسلمين ضررا وضيرا، ونؤدّي من الجهاد السنّة والفرض، ونعمل بقوله تعالى: {وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ} فاتفق اللّقاء بمن حضر من عساكرنا المنصورة، وثوقا بقوله تعالى: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً} وإلا فأكابركم يعلمون وقائع الجيوش الإسلاميّة التي كم وطئت موطئا يغيظ الكفّار فكتب لها عمل صالح، وسارت في سبيل الله ففتح عليها أبواب المناجح؛ وتعدّدت أيام نصرتها التي لو دقّقتم الفكر فيها لأزالت ما حصل عندكم

من لبس، ولما قدرتم أن تنكروها وفي تعب من ينكر ضوء الشمس، وما زال الله نعم المولى ونعم النصير، وإذا راجعتموهم قصّوا عليكم نبأ الاستظهار {وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}؛ وما زالت تتّفق الوقائع بين الملوك والحروب، وتجري المواقف التي هي بتقدير الله فلا فخر فيها للغالب ولا عار على المغلوب؛ وكم من ملك استظهر عليه ثم نصر، وعاوده التأييد فجبر بعد ما كسر؛ خصوصا ملوك هذا الدّين، فإنّ الله تعالى تكفّل لهم بحسن العقبى فقال تعالى: {وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}

وأما إقامتهم الحجة علينا، ونسبتهم التفريط إلينا؛ في كوننا لم نسيّر إليهم رسولا عند ما حلّوا بدمشق، فنحن عندما وصلنا إلى الديار المصرية لم نزد على أن اعتدّينا وجمعنا جيوشنا من كل مكان، وبذلنا في الاستعداد غاية الجهد والإمكان؛ وأنفقنا جزيل الأموال في العساكر والجحافل، ووثقنا بحسن الخلف لقوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ} ولمّا خرجنا من الديار المصرية، بلغنا خروج الملك من البلاد، لأمر حال بينه وبين المراد؛ فتوقّفنا عن المسير توقّف من أغنى رعبه عن حثّ الركاب، وتثبّتنا تثبّت الراسيات {وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ} وبعثنا طائفة من العساكر لمقاتلة من أقام بالبلاد فما لاح لنا منهم بارق ولا ظهر، وتقدّمت فتخطّفت من حمله على التأخّر الغرر، ووصلت إلى الفرات فما وقفت للقوم على أثر.

وأما قولهم: إننا ألقينا في قلوب العساكر والعوامّ أنهم فيما بعد يتلقّونا على حلب أو الفرات، وأنهم جمعوا العساكر ورحلوا إلى الفرات وإلى حلب مرتقبين؛ فالجواب عن ذلك أنهم من حين بلغنا حركتهم جزمنا، وعلى لقائهم عزمنا؛ وخرجنا وخرج أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ابن عم سيدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الواجب الطاعة على كلّ مسلم، المفترض المبايعة والمتابعة على كل منازع ومسلّم؛ طائعين لله ولرسوله في أداء مفترض الجهاد، باذلين في القيام بما أمرنا الله تعالى غاية الاجتهاد؛ عالمين بأنه لا يتمّ أمر دين ولا دنيا إلا بمشايعته، ومن والاه فقد حفظه الله تعالى وتولّاه، ومن عانده أو عاند من أقامه فقد أذلّه الله؛ فحين وصلنا إلى البلاد الشامية تقدّمت عساكرنا تملأ السّهل والجبل، وتبلّغ بقوّة الله تعالى في النصر الرّجاء والأمل؛ ووصلت أوائلها إلى أطراف حماة وتلك النواحي فلم يقدم أحد منهم عليها، ولا جسر أن يمدّ حتّى ولا الطّرف إليها؛ فلم نزل مقيمين حتّى بلغنا رجوع الملك إلى البلاد، وإخلافه موعد اللقاء والله لا يخلف الميعاد؛ فعدنا لاستعداد جيوشنا التي لم تزل تندفع في طاعتنا اندفاع السيل، عاملين بقوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ} وأمّا ما جعلوه عذرا في الإقامة بأطراف البلاد وعدم الإقدام عليها، وأنهم لو فعلوا ذلك ودخلوا بجيوشهم ربما أخرب البلاد مرورها، وبإقامتهم فسدت أمورها؛ فقد فهم هذا المقصود، ومتى ألفت العباد والبلاد منهم هذا الإشفاق؟

ومتى اتّصفت جيوشهم بهذه الأخلاق؟ وها آثارهم موجودة على ملك آل سلجوق وما تعرّضوا لدار ولا جار، ولا عفّوا أثرا من الآثار؛ ولا حصل لمسلم منهم ضرر، ولا أوذي في ورد ولا صدر؛ وكان أحدهم يشتري قوته بدرهمه وديناره، ويأبى أن تمتدّ إلى أحد من المسلمين يد إضراره؛ هذه سنّة أهل الإسلام، وفعل من يريد لملكه الدوام.

وأما ما أرعدوا به وأبرقوا، وأرسلوا به عنان قلمهم وأطلقوا؛ وما أبدوا من الاهتمام بجمع عساكرهم وتهيئة المجانيق إلى غير ذلك مما ذكره من التهويل، فالله تعالى يقول: {الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَقالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} وأما قولهم: وإلا فدماء المسلمين مطلولة، فما كان أغناهم عن هذا الخطاب، وأولاهم بأن لا يصدر إليهم عن ذلك جواب؛ ومن قصد الصّلح والإصلاح، كيف يقول هذا القول الذي عليه فيه من جهة الله تعالى ومن جهة رسوله أيّ جناح؟ وكيف يضمر هذه النية، ويتبجّج بهذه الطويّة؟ ولم يخف مواقع زلل هذا القول وخلله، والنبي صلّى الله عليه وسلّم يقول: «نيّة المرء أبلغ من عمله» وبأيّ طريق تهدر دماء المسلمين التي من تعرّض إليها يكون الله له في الدنيا والآخرة مطالبا وغريما، ومؤاخذا بقوله تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً } وإذا كان الأمر كذلك فالبشرى لأهل الإسلام بما نحن عليه من الهمم المصروفة إلى الاستعداد، وجمع العساكر التي تكون لها الملائكة الكرام إن شاء الله تعالى من الأنجاد؛ والاستكثار من الجيوش الإسلامية المتوفّرة العدد، المتكاثرة المدد؛ الموعودة بالنصر الذي يحفّها في الظّعن والإقامة، الواثقة به من قوله صلّى الله عليه وسلّم: «لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على عدوّهم إلى يوم القيامة» . المبلّغة في نصر دين الله آمالا، المستعدة لإجابة داعي الله إذا قال: {انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالًا} وأما رسلهم فلان وفلان فقد وصلوا إلينا، ووفدوا علينا؛ وأكرمنا وفادتهم، وغزّرنا لأجل مرسلهم من الإقبال مادّتهم، وسمعنا خطابهم، وأعدنا عليهم جوابهم؛ هذا مع كوننا لم يخف علينا انحطاط قدرهم، ولا ضعف أمرهم؛ وأنهم ما دفعوا لأفواه الخطوب، إلا لما ارتكبوه من ذنوب؛ وما كان ينبغي أن يرسل مثل هؤلاء لمثلنا من مثله، ولا ينتدب لمثل هذا الأمر المهمّ إلا من يجمع على فصل خطابه وفضله.

وأما ما التمسوه من الهدايا والتّحف، فلو قدّموا من هداياهم حسنة لعوّضناهم بأحسن منها، ولو أتحفونا بتحفة، لقابلناها بأجلّ عوض عنها. وقد كان عمّهم الملك أحمد راسل والدنا الشهيد، وناجى بالهدايا والتّحف من مكان بعيد؛ وتقرّب إلى قلبه بحسن الخطاب، فأحسن له الجواب؛ وأتى البيوت من أبوابها بحسن الأدب، وتمسّك من الملاطفة بأقوى سبب.

والآن فحيث انتهت الأجوبة إلى حدّها، وأدركت الأنفة من مقابلة ذلك الخطاب غاية قصدها؛ فنقول: إذا جنح الملك للسّلم جنحنا لها، وإذا دخل في الملّة المحمدية ممتثلا ما أمر الله تعالى به مجتنبا ما عنه نهى، وانتظم في سلك الإيمان، وتمسك

بموجباته تمسّك المتشرف بدخوله فيه لا المنّان، وتجنّب التشبّه بمن قال الله تعالى في حقهم: {قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ} . وطابق فعله قوله، ورفض الكفّار الذين لا يحلّ له أن يتّخذهم حوله؛ وأرسل إلينا رسولا من جهته يرتّل آيات الصلح ترتيلا، ويروق خطابه وجوابه حتّى يتلو كلّ أحد عند عوده: يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا صارت حجّتنا وحجّته مركبة على من خالف ذلك، وكلمتنا وكلمته قامعة أهل الشرك في سائر الممالك؛ ومظافرتنا له تكسب الكافرين هوانا، والشاهد لمصافاتنا مفاد قوله تعالى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً} وينتظم إن شاء الله تعالى شمل المصالح أحسن انتظام، ويحصل التمسك من الموادعة والمظافرة بعروة لا انفصال لها ولا انفصام، وتستقرّ قواعد الصّلح على ما يرضي الله تعالى ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام." [صبح الأعشى، ج7، ص265]

وفي الحقيقة نحن في حيرة ، فإذا كان وزير غازان المؤرخ الكبير للمغول رشيد الدين الهمذاني يمكن أن نتهمه بالتحيز أو تبرير الجرائم، فماذا يمكن أن نقول في ابن حجر والذهبي؟! والذي يظهر لي من هذه الرسائل أن الملك محمود غازان ربما دخل في الإسلام بصورة انتقائية، ربما أعجبته فكرة التوحيد، وأخلاق الإسلام، وتعاليمه، وسموه، أو التأثر بحضارة المغلوبين أو رغبة في استقرار شؤون مملكته الداخلية... إلخ – والله أعلم بما في صدور العالمين – ولكن قضية الحكم والمال ربما رأى أنه لا دخل للإسلام بها في نظره – مثلما كان (ومازال) يفعل كثير من حكام المسلمين – وإنه كان لا يرى بأساً بالتحالف مع النصارى وتسليمهم القدس الشريف، من أجل الانتصار على خصومه من المماليك!! كنوع من التدبير أو البراجماتية السياسية.

أما جنده فقد كانوا مجرد مرتزقة لا تختلف عن جند الأعداء في شيء، وعلى سنن الجاهلية في حروبها من استباحة المدن وأهلها وأموالها، وسبي نساءها، والفجور بهم ! ولا يردهم دين، ولا يردعهم خُلق.. بل هم عبيد لملكهم، وعبيد للنشأة والبيئة التي خروجوا منها.

***

الناصر محمد بن قلاوون:

هو سلطان المماليك، صاحب السيرة المحمودة، الرافع لكثير من مظالم عصره، اعتبره ابن تيمية من الطائفة المنصورة، وكتيبة الإسلام، وقد صد كثير من هجمات التتار، وانتصر عليهم.. إلا إننا نجد أنه – في النهاية – صالحهم، وأكرم أسراهم، فيبدو أنهم لم يتعامل معهم على أنهم "طائفة كفر وردة" كما جاء في رسائل صبح الأعشى!

وفي ذلك يقول المؤرخ المقريزي في السلوك:

"وقدمت رسل غازان إِلَى الْفُرَات فورد الْبَرِيد بذلك فَخرج إِلَيْهِم الْأَمِير سيف الدّين كراي على الْبَرِيد لإحضارهم فقدموا دمشق يَوْم الثلاثاء ثَالِث عشر ذِي الْقعدَة وهم نَحْو الْعشْرين رجلا فأنزلوا بقلعتها. وَحمل ثَلَاثَة مِنْهُم إِلَى مصر فِي ثامن عشريه وهم كَمَال الدّين مُوسَى بن يُونُس قَاضِي الْموصل وناصر الدّين على خواجا ورفيقه فوصلوا إِلَى الْقَاهِرَة لَيْلَة الْإِثْنَيْنِ خَامِس ذِي الْحجَّة وأكرموا غَايَة الْإِكْرَام. فَلَمَّا كَانَ وَقت الْعَصْر من يَوْم الثُّلَاثَاء سادس عشره: وَاجْتمعَ الْأُمَرَاء والعسكر بقلعة الْجَبَل وألبست المماليك السُّلْطَانِيَّة الكلفيات الزركش والطرز الزركش على أَفْخَر الملابس وَجلسَ السُّلْطَان بعد الْعشَاء الْآخِرَة وَبَين يَدَيْهِ ألف شمعة تعد وَقد وقفت المماليك من بَاب القلعة من بَاب الإيوان صفّين. وأحضرت الرُّسُل فَسَلمُوا وَقَامَ قَاضِي الْموصل وعَلى رَأسه طرحة فَخَطب خطْبَة بليغة وجيزة فِي معنى الصُّلْح ودعا للسُّلْطَان ولغازان وللأمراء وَأخرج كتابا من غازان مَخْتُومًا فَلم يفتح. وَأخرج بالرسل إِلَى مكانهم إِلَى لَيْلَة الْخَمِيس فَفتح الْكتاب الَّذِي من عِنْد غازا وَهُوَ فِي قطع نصف الْبَغْدَادِيّ فَإِذا هُوَ بالخط المغلي فعرب وَقُرِئَ من الْغَد بِحَضْرَة أهل الدولة فَإِذا هُوَ يتَضَمَّن أَن عَسَاكِر مصر دخلت فِي الْعَام الْمَاضِي أَطْرَاف بِلَاده وأفسدت فَأنف من ذَلِك وَقدم إِلَى الشَّام وَهزمَ العساكر ثمَّ عَاد فَلم يخرج إِلَيْهِ أحد فَرجع إبْقَاء على الْبِلَاد لِئَلَّا تخرب وَأَنه مستعد للحرب ودعا إِلَى الصُّلْح فَكتب جَوَابه وجهز الْأَمِير شمس الدّين مُحَمَّد بن التيتي وعماد الدّين على بن عبد الْعَزِيز بن عبد الرَّحْمَن بن عبد الْعلي بن السكرِي خطب جَامع الْحَاكِم والأمير حسام الدّين أزدمر المجيري للسَّفر بِالْجَوَابِ مَعَ الرُّسُل الواصلين من عِنْد غازان." [السلوك لمعرفة الملوك، للمقريزي]

" وَقدم الْأَمِير حسام الدّين أزدمر المجيري وعماد الدّين على بن عبد الْعَزِيز بن عبد الرَّحْمَن بن عبد الْعلي بن معرف بن السكرِي من بِلَاد الشرق إِلَى دمشق فِي رَابِع عشر شعْبَان ودخلا الْقَاهِرَة أول رَمَضَان ومعهما كتاب خر بندا وهديته فتضمن كِتَابه جُلُوسه على تخت الْملك بعد أَخِيه مَحْمُود غازان وخاطب السُّلْطَان بالأخوة وَسَأَلَ إخماد الْفِتَن وَطلب الصُّلْح وَقَالَ فِي آخر كَلَامه: عَفا الله عَمَّا سلف وَمن عَاد فينتقم الله مِنْهُ. فَأُجِيب وجهزت لَهُ الْهَدِيَّة وَأكْرم رَسُوله" [السلوك لمعرفة الملوك، للمقريزي]

الياسق بين التتار والمماليك:

الياسق هو بعض التشريعات الوضعية التي كتبها جينكزخان – ملك المغول- وقد كان التتار يحكمون به حتى بعد إسلامهم! وقد رأينا ما سبق من شكل هذا الإسلام، والجهل بطبيعته وحقيقته وشريعته، الأمر الذي جعلهم لا يرون بأساً بالتحاكم إلى هذا "الياسق" أو "الياسة" – وقد عدل بعضها السلطان غازان وسُميت بـ "الياسا الغازانية"، وقيل إنها عُدلت لتتوافق مع الشريعة الإسلامية! – إلا إننا نجد على الجانب الآخر تأثر المماليك أيضاً بتشريعات الياسق هذا، فيقول

المقريزي: " فلما كثرت وقائع التتر في بلاد المشرق والشمال وبلاد القبجاق، وأسروا كثيرا منهم وباعوهم، تنقلوا في الأقطار، واشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب جماعة منهم سماهم البحرية، ومنهم من ملك ديار مصر، وأوّلهم المعز أيبك. ثم كانت لقطز معهم الواقعة المشهورة على عين جالوت، وهزم التتار وأسر منهم خلقا كثيرا صاروا بمصر والشام، ثم كثرت الوافدية في أيام الملك الظاهر بيبرس وملؤوا مصر والشام، وخطب للملك بركة بن يوشي بن جنكز خان على منابر مصر والشام والحرمين، فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغل، وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم، هذا وملوك مصر وأمراؤها وعساكرها قد ملئت قلوبهم رعبا من جنكز خان وبنيه، وامتزج بلحمهم ودمهم مهابتهم وتعظيمهم، وكانوا إنما ربّوا بدار الإسلام ولقّنوا القرآن وعرفوا أحكام الملة المحمدية، فجمعوا بين الحق والباطل، وضموا الجيد إلى الرديء، وفوّضوا القاضي القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج، وناطوبه أمر الأوقاف والأيتام، وجعلوا إليه النظر في الأقضية الشرعية، كتداعي الزوجين وأرباب الديون ونحو ذلك، واحتاجوا في ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكز خان والاقتداء بحكم الياسة، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه من عوايدهم، والأخذ على يد قويهم، وانصاف الضعيف منه على مقتضى ما في الياسة، وجعلوا إليه مع ذلك النظر في قضايا الدواوين السلطانية عند الاختلاف في أمور الإقطاعات، لينفذ ما استقرّت عليه أوضاع الديوان وقواعد الحساب، وكانت من أجلّ القواعد وأفضلها حتى تحكم القبط في الأموال وخراج الأراضي، فشرّعوا في الديوان ما لم يأذن به الله تعالى، ليصير لهم ذلك سبيلا إلى أكل مال الله تعالى بغير حقه، وكان مع ذلك يحتاج الحاجب إلى مراجعة النائب أو السلطان في معظم الأمور.

هذا وستر الحياء يومئذ مسدول، وظلّ العدل صاف، وجناب الشريعة محترم، وناموس الحشمة مهاب، فلا يكاد أحد أن يزيغ عن الحق، ولا يخرج عن قضية الحياء، إن لم يكن له وازع من دين، كان له ناه من عقل. ثم تقلص ظلّ العدل، وسفرت أوجه الفجور، وكشّر الجور أنيابه، وقلت المبالاة، وذهب الحياء والحشمة من الناس، حتى فعل من شاء ما شاء، وتعدّت منذ عهد المحن التي كانت في سنة ست وثمانمائة الحجاب، وهتكوا الحرمة، وتحكموا بالجور تحكما خفي معه نور الهدى، وتسلطوا على الناس مقتا من الله لأهل مصر وعقوبة لهم بما كسبت أيديهم، ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون.

وكان أوّل ما حكم الحجاب في الدولة التركية بين الناس بمصر، أن السلطان الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاون، استدعى الأمير شمس الدين آق سنقر الناصريّ، نائب طرابلس، ليوليه نيابة السلطنة بديار مصر عوضا عن الأمير سيف الدين بيغوا، أميرا حاجبا كبيرا، يحكم بين الناس، فخلع عليه في جمادى الأولى سنة ست وأربعين وسبعمائة، فحكم بين الناس كما كان نائب السلطنة يحكم، وجلس بين يديه موقعان من موقعي السلطان لمكاتبة الولاة بالأعمال ونحوهم،

فاستمرّ ذلك. ثم رسم في جمادى الآخرة منها أن يكون الأمير رسلان يصل حاجبا مع بيغوا يحكم بالقاهرة على عادة الحجاب، فلما انقضت دولة الكامل بأخيه الملك المظفر حاجي بن محمد، استقرّ الأمير سيف الدين أرقطاي نائب السلطنة، فعاد أمر الحجاب إلى العادة القديمة، إلى أن كانت ولاية الأمير سيف الدين جرجي الحجابة في أيام السلطان الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاون، فرسم له أن يتحدّث في أرباب الديون ويفصلهم من غرمائهم بأحكام السياسة، ولم تكن عادة الحجاب فيما تقدّم أن يحكموا في الأمور الشرعية، وكان سبب ذلك ووقوف تجار العجم للسلطان بدار العدل في أثناء سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، وذكروا أنهم ما خرجوا من بلادهم إلّا لكثرة ما ظلمهم التتار وجاروا عليهم، وأن التجار بالقاهرة اشتروا منهم عدّة بضائع وأكلوا أثمانها، ثم هم يثبتون على يد القاضي الحنفيّ أعسارهم، وهم في سجنه، وقد أفلس بعضهم فرسم للأمير جرجي بإخراج غرمائهم من السجن وخلاص ما في قبلهم للتجار، وأنكر على قاضي القضاة جمال الدين عبد الله التركمانيّ الحنفيّ ما عمله، ومنع من التحدث في أمر التجار والمدينين، فأخرج جرجي غرماء التجار من السجن وعاقبهم، حتى أخذ للتجار أموالهم منهم شيئا بعد شيء، وتمكن الحجاب من حينئذ من التحكم على الناس بما شاؤوا." [المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، للمقريزي، ج3، ص 387]

ولعل سبب ذلك: الولع بتقليد المنتصر، والتأثر بالثقافة والتربية، والجهل بالشرع، وتوقف الاجتهاد الفقهي وجموده، وإتباع الهوى، والحفاظ على السلطة والافتتان بالملك... إلخ.

ولعل من أهم تلك الأسباب هو الانفصال الذي حصل بين التشريعات التعبدية، وتشريعات المعاملات، فالتشريعات التعبدية من (أحكام الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والميراث، والزواج والطلاق.. إلخ) لم تخرج عن يد القضاة الشرعيين والمذاهب الفقهية.. بينما تشريعات المعاملات من (أصول الحكم، والمال، والسياسة، والحرب، وتنظيم شؤون الأمة... إلخ) فقد كانت في يد السلطان ووزراءه، وكان الهم الأكبر فيها هو الحفاظ على الملك والثروة في يد الحاكم وحاشيته، وقد كان الانحراف في سلطة الحكم والمال مبكراً جداً في التاريخ الإسلامي، وساعد "رسوخ الملك العضوض" في الانحراف شيئاً فشيئاً عن أصول الشريعة فيهما.

أمر آخر لعله جعلهم يظنون أنهم غير مؤاخذون عليه وهو أن تشريعات المعاملات ليست بنفس تحديد التشريعات التعبدية الثابتة.. فالشريعة الإسلامية في جانب المعاملات مرنة جداً، وتضع – في الغالب – الأصول العامة، والإطار الكلي لشؤون الحكم والسياسة والاقتصاد والحرب... إلخ، وتترك التفصيلات لطبيعة العصر وظروفه وتحدياته وتطوره

الحضاري، دون الخروج عن تحقيق العدل والاستقامة عليه، وإقامة الحق المطلق من المحاباة على الجميع. وكونها مرنة لا يعني الخروج عن إطارها العام، بل يعني الاجتهاد في تحقيق هذه المبادئ قدر الوسع والطاقة، والإخلاص والتجرد فيها، فمثلما يُخلص الإنسان في صلاته وصيامه وحجه لله وحده، فكذلك يجب أن يُخلص أمر السياسة والحكم والحرب والمال لله وحده كذلك، فرب الصلاة هو رب المال والسلطان.

لعل هذه الأسباب – وغيرها – هي ما جعلتهم يتهاونون في أمر الشريعة في جانب المعاملات، ولقد ألمح لذلك الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – فقال: **"الفقه الخاص بالعبادات أكثر ثباتاً واستقراراً، لأنه يتعلق بشعائر تعبدية لا تتأثر بتوالي العصور والأجيال، وأما الفقه الخاص بالمعاملات، فهو أكثر تطوراً، لأنه أشد تأثراً بالحاجات البشرية المتجددة التي لا تستقر على وضع معين، بحكم تشابك العلاقات، وتغير الأحوال، وبروز أوضاع وعلاقات اجتماعية جديدة لم تكن من قبل في الحساب... وشيئاً فشيئاً كان نمو الفقه الإسلامي يتقلص كذلك عن هذه النواحي، بينما يستمر هذا النمو ويزداد في النواحي الطليقة التي تركت الحكومات المنحرفة للناس والفقهاء أن يتحدثوا فيها.**

ومن هنا نشأ ذلك التضخم في فقه العبادات في العصور المظلمة وذلك الانكماش في فقه النظم الاجتماعية؛ لأن مجال العبادات كان هو المجال المأمون الذي لا تؤذي فيه الثرثرة، بل ربما تفيد لأنها تشغل أذهان الرعية بالجدل الفقهي عن مناقشة الأوضاع الاجتماعية السائدة في تلك العصور !!" [نحو مجتمع إسلامي، فصل "كيف نستوحي الإسلام"، سيد قطب]

***

فهل التتار الغزاة – الذين حكم ابن تيمية بكفرهم وردتهم – حالهم كحال أنظمة الحكم في بلادنا ؟

الحقيقة هناك أوجه "اتفاق" و"اختلاف" بينهم وبين التتار، وكل فتوى يجب أن تُوضع في إطار عصرها السياسي والاجتماعي والتطور التاريخي الحاصل.

فالدكتور محمد عمارة يُرجح في كتابه "الفريضة الغائبة.. جذور وحوارات" أن حكام اليوم هم كالمماليك وليسوا كالتتار.. ولكن يُضعف هذا القول هو جهاد المماليك ضد الصليبيين والتتار، وحفاظهم على الوجود الحضاري والتاريخي للإسلام، وإن كانوا على سيرة وسنن "الملك العضوض"، بينما حكام اليوم – في بلادنا – يزعمون استقلال بلادنا، وهي تحت الهيمنة

العالمية، وعليها الذلة والصغار! ومن حكام بلادنا من يتفاخر بعلمانيته، ومن يتفاخر بمحاربة الحركات الإسلامية الساعية لعودة الإسلام لدفة التوجيه والقيادة وتحرير الأمة من الذلة والخضوع لقيادة العالم الصليبي، بالإضافة إلى السيرة الممنهجة للإفساد والبغي والعدوان، وتدمير إنسانية الإنسان وكرامته، وقبل هذا وذاك تنحية شريعة الإسلام عن قيادة وحكم الأمة.

ومن جانب آخر: نستطيع أن نقول إنهم لم يرتكبوا مثل جرائم التتار في الغزو والسبي وتدمير بلاد المسلمين لأن الظرف الحضاري الآن يمنع ذلك[1] وأحسب أنه لو عاد الزمان، لكانت سيرتهم أشد وحشية من التتار لو فُتح لهم الباب.

كما يُرجح كذلك الدكتور عمارة أن تكفير ابن تيمية لهم ليس بسبب التحاكم إلى الياسق – الذي كان يتحاكم إليه بعض المماليك أيضاً والذين اعتبرهم ابن تيمية الطائفة المنصورة – وإنما بسبب "تعديهم وغاراتهم وغزواتهم التي أهلكوا فيها الحرث والنسل وهددوا الحضارة الإسلامية بالدمار".

والذي نرجحه أنهم ليسوا كالتتار، وليسوا كالمماليك.. إنما هم مخلفات الاستعمار[2]، وجدهم الاستعمار (الحملات الصليبية) مسلمون ومن بني جلدتنا.. فأبقى لهم "صورة الإسلام" وحقيقة التبعية والخدمة والارتهان للأسياد في النظام الدولي ونجد حالهم كملوك الطوائف في الأندلس.. فلا نقول بكفرهم وردتهم، وإنما نقول إنهم "أهل بغي" يجب الثورة عليهم وتحرير الأمة منهم.

***

---

[1] ومنهم من يفعل أشد مما فعل التتار، ويبارك جرائمهم العالم الحر الذي يزعم الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، ويقولون عن مثل هؤلاء الحكام: نعلم أنهم أوغاد، ولكنهم أوغادونا. أي: مجرمون توابع لنا !!

[2] قال اللورد كرومر: "عندما ترحل بريطانيا لابد أن تترك ورائها حكومات ديكتاتورية تريح أوروبا من احتمالات الفوضى أو احتمالات الحكم الاسلامي في مصر، ومقابل هذا لابد أن نطلق يدها ونسمح لها ببعض الممارسات التي لا تتوافق مع القيم الأوروبية، وأهم شيء فيها هو (الاستقرار) " اللورد كرومر من كتاب مصر الحديثة طبعة ماكميلان، لندن 1908.

حروب الردة ومانعي الزكاة

في الفتوى الشهيرة للعلاّمة ابن تيمية حول الطوائف الممتنعة، والتي اعتمدتها كافة التنظيمات الجهادية في حربها ضد الأنظمة الحاكمة على أنها أنظمة ردة وكفر، قال ابن تيمية: "**إن السلف سموا مانعي الزكاة مرتدين مع كونهم يصومون ويصلون، ولم يكونوا يقاتلون جماعة المسلمين**"[1] ويقول: إن هذا هو مذهب مالك وأهل الحديث، ومذهب أحمد والثوري والأوزاعي.

ولما كان موضوع هذا البحث هو الحديث عن طبيعة وكيفية مواجهة الأنظمة الحاكمة في بلادنا، واستكمالاً لبحث "**عقيدتنا الجهادية**" كان لا بد من تفصيل أمر حروب الردة وتحقيق الأمر بدقة من حيث: النظرة التاريخية، والإجماع الفقهي.

***

حروب الردة

ظهرت بوادر الردة قُبيل وفاة النبي ﷺ، حينما زعم مسيلمة الكذاب أنه شريك للنبي ﷺ في الرسالة والنبوة، وقد دخلت العرب في دين الإسلام طوعاً وكرهاً - بعد فتح مكة، وخضوع قريش للنبي ﷺ - ولما مات النبي ﷺ.. حدث زلزال كبير في الجزيرة العربية، هو ارتداد العرب !

وسنعتمد فيما نذكره من أحداث تاريخية على: كتاب الردة[2] للواقدي[3]، والطبقات الكبرى لابن سعد، ومصنف عبد الرزاق الصنعاني، ومصنف ابن أبي شيبة، وتاريخ خليفة بن خياط، وتاريخ الطبري، وتاريخ الإسلام للذهبي.

---

[1] [مجموع الفتاوى: ج3، ص 548]

[2] وهو المصدر الأول والأقدم بين أيدينا، والذي يرويه عنه ابن اسحاق إمام المغازي، وقد اقتبس بعض المؤرخين من هذا الكتاب وذكروا بعض نصوصه مختصرة من مثل ابن سعد في الطبقات، والطبري في تاريخه، وعبد الرحمن بن حبيش في كتابه المغازي، وابن حجر في الإصابة، وغيرهم.

[3] وبخصوص توثيق الواقدي: فالذي نراه بعد الاطلاع على كتب الجرح والتعديل: أنه ثقة في المغازي والفتوحات والسير، ويعتبر مصدراً كبيراً اعتمد عليه كثير من المؤرخين بعده، ولكنه ضعيف الحديث، وقد روى عنه الإمام الشافعي ومات قبله، ووثقه تلميذه محمد بن سعد صاحب الطبقات.

تبين بعد متابعة أحداث الردة – في هذه الفترة – التالي:

إن أهل الردة لم يكونوا على صورة واحدة بل صور كثيرة منها:

(1) قوم ارتدوا، وادعوا النبوة. [مسيلمة الكذاب، وطليحة بن خويلد].

(2) قوم ارتدوا، ومنعوا الزكاة. [عيينة بن حصن، ومال إلى طليحة]

(3) قوم ارتدوا، وتحالفوا مع العدو الخارجي "الفرس" [أهل البحرين].

(4) قوم بقوا على الإسلام، ومنعوا الزكاة. [مالك بن نويرة].

(5) قوم بقوا على الإسلام، ولكنهم أعلنوا العصيان، ومنعوا الزكاة، والخروج على الحاكم. [أهل اليمن]

وكان منع الزكاة دليلاً على عدم الطاعة، والخروج من الجماعة، وعدم الخضوع لسلطة المسلمين في المدينة، ومن ثَم اقترن اسم حروب الردة مع منع الزكاة، ومنه اعتقد بعض العلماء والفقهاء أن الردة ومنع الزكاة على درجة واحدة، وليس ذلك بصحيح كما سنُبين إن شاء الله.

نجد في الفئات الثلاثة الأولى أن الأصل فيها هو إعلان الردة، والكفر بدين محمد ﷺ، بل وادعاء النبوة في حالة، والاستعانة بالعدو الخارجي – وهم الفرس – في حالة أخرى، والارتداد عن الدين، ومن ثم عدم الخضوع لأحكامه سواء في أمر الزكاة أو غيرها من الأمور.

وقد عزم أبو بكر – رضي الله عنه – على محاربة المرتدين، ومحاربة من خلع الطاعة، وفارق الجماعة، وكان هناك تحفظ من عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وناقش أبي بكر في أمرهم، فقال عمر: "وأما من ارتدت من هؤلاء العرب، فمنهم من لا يصلي وقد كفر بالصلاة، ومنهم من يصلي وقد منع الزكاة، ولا والله يا أبا حفص ما أفرق بين الصلاة والزكاة لأنهما مقرونتان.

فقال له عمر: يا خليفة رسول الله، فلو أغمضت وتجافيت عن زكاة هؤلاء العرب في عامك هذا ورفقت بهم، لرجوت أن يرجعوا عن ما هم عليه، فقد علمت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وإني محمد رسول الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله)، قال فقال

أبو بكر رضي الله عنه: والله لو منعوني من الزكاة عقالاً مما كان يأخذ منهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم لقاتلتهم عليه أبدا ولو ما حييت، ثم لنحاربنهم أبدا حتى ينجز الله وعده ويفي لنا عهده، فإنه قال وقوله صدق لا يخلف له: { وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا }.

قال، فقال عمر: يا خليفة رسول الله، إنما قد شرح الله صدرك لقتال القوم، فسمع وطاعة.

قال: وتتابع الناس على رأي أبي بكر" [كتاب الردة للواقدي]

وهذا القول: رواه البخاري ومسلم وغيرهما، بأسانيد صحيحة، وهذا نصه: "عَن أبي هريرة قال: "**لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنْ الْعَرَبِ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ، وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا، قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَرَفْتُ، أَنَّهُ الْحَقُّ**" [صحيح البخاري/ 1400]

ووجه استشكال عمر هو أنهم قوم يقولون "لا إله إلا الله" ويصلون، وبذلك على فهمه من حديث: "أمرت أن أقاتل الناس"[1] أن مثل هؤلاء القوم لا يجوز قتالهم، ولكن رد أبو بكر بأنه سيقاتل من "يمنع الزكاة" ولم يذكر أبو بكر أنه سيقاتلهم لأنهم كفروا بالله ورسوله ﷺ، بل إنه قد منع في رسالته للأجناد القتال إذا سمع الأذان، ويراجع القبائل في أمرها، فهناك من منع الزكاة ليس كفراً بدين محمد، ولا إدعاء للنبوة من بعده، ولا استعلان الردة عن الإسلام فكل هؤلاء لا شك في كفرهم، ولم يختلف أحد في أمرهم.. إنما الجدال في أولئك الذين بقوا على الإسلام، والصلاة ولكنهم منعوها أنفة، أو شحاً وبخلاً أو عدم الرضا ببيعة أبي بكر؛ فالقتال المذكور في هذا القول لا يعني "كفر مانعي الزكاة" وإنما القتال للدخول في الطاعة، والتزام الجماعة، فقد منع مالك بن نويرة الزكاة، ولما قُتل، دفع ديته أبو بكر – رضي الله عنه – فقد حَكم بإسلامه هو وعمر وابن عمر وقتادة رضي الله عنهم. وعفى أبو بكر كذلك عن الأشعث بن قيس وزوّجه أخته، وكان قد منع الزكاة، كما سيأتي بيان ذلك تفصيلاً.

---

[1] راجع – إن شئت – شرحه في بحث: عقيدتنا الجهادية.

وقد كان "اتفاق أكثر الصحابة على امتناع قتال مانعي الزكاة مع خلاف أبي بكر لهم.. [ثم] اتفقوا على قتال مانعي الزكاة بعد اختلافهم في ذلك، وقتال مانعي الزكاة لم يكن بعد استقرار الخلاف فيما بينهم واستمرار كل واحد من المجتهدين على الجزم بما ذهب إليه، بل إنما كان ذلك الخلاف على طريق المشورة كما جرت به العادة في حالة البحث عما ينبغي أن يعمل بين العقلاء بخلاف ما وقع النزاع فيه." [الإحكام في أصول الأحكام للأمدي]

***

ونلحظ من سيرة حروب المرتدين: أن من طلب الأمان قُبل منه، ومن طلب العفو أُجيب إليه، ومن طلب الصلح وُفي إليه، ومن اعتذر قُبل عذره، ومن تاب تاب الله عليه، ومن أبى إلا القتال.. كان القتال حتى يدخل في الإسلام، والطاعة والجماعة.

وقد خيّرهم أبو بكر بين السلم المخزية أو الحرب المجلية " عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: جَاءَ وَفْدُ بُزَاخَةَ أَسَدٍ، وَغَطَفَانَ[1] إِلَى أَبِي بَكْرٍ يَسْأَلُونَهُ الصُّلْحَ، فَخَيَّرَهُمْ أَبُو بَكْرٍ بَيْنَ الْحَرْبِ الْمُجْلِيَةِ أَوِ السَّلْمِ الْمُخْزِيَةِ "، قَالَ: فَقَالُوا: هَذَا الْحَرْبُ الْمُجْلِيَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا، فَمَا السَّلْمُ الْمُخْزِيَةُ؟ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: " تُؤَدُّونَ الْحَلْقَةَ وَالْكُرَاعَ، وَتَتْرُكُونَ أَقْوَامًا تَتَّبِعُونَ أَذْنَابَ الْإِبِلِ حَتَّى يَرَى اللهُ خَلِيفَةَ نَبِيِّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ أَمْرًا يَعْذِرُونَكُمْ بِهِ، وَتَدُونَ قَتْلَانَا وَلَا نَدِي قَتْلَاكُمْ، وَقَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ، وَتَرُدُّونَ مَا أَصَبْتُمْ مِنَّا وَنَغْنَمُ مَا أَصَبْنَا مِنْكُمْ "، فَقَالَ عُمَرُ، فَقَالَ: " قَدْ رَأَيْتَ رَأْيًا، وَسَنُشِيرُ عَلَيْكَ، أَمَّا أَنْ يُؤَدُّوا الْحَلْقَةَ وَالْكُرَاعَ فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ، وَأَمَّا أَنْ يَتْرُكُوا أَقْوَامًا يَتَّبِعُونَ أَذْنَابَ الْإِبِلِ حَتَّى يُرِيَ اللهُ خَلِيفَةَ نَبِيِّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ أَمْرًا يَعْذِرُونَهُمْ بِهِ، فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ، وَأَمَّا أَنْ نَغْنَمَ مَا أَصَبْنَا مِنْهُمْ وَيَرُدُّونَ مَا أَصَابُوا مِنَّا، فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ، وَأَمَّا أَنَّ قَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ وَقَتْلَانَا فِي

---

[1] وهم الذين كفروا بدين محمد ﷺ وأعلن طليحة بن خويلد الأسدي النبوة، قال أبو بكر: " يَا خَالِدُ، سِرْ نَحْوَ طُلَيْحَةَ بْنِ خُوَيْلِدٍ الأَسَدِيِّ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَنِي أَسَدٍ وَغَطَفَانَ وَفَزَارَةَ، وَانْظُرْ إِذَا وَصَلْتَ إِلَى الْقَوْمِ وَنَزَلْتَ بِدِيَارِهِمْ وَسَمِعْتَ أَذَانًا، فَلا تُقَاتِلَنَّ أَحَدًا حَتَّى تَعْذِرَ إِلَيْهِمْ وَتُنْذِرَهُمْ، ثُمَّ دَسِّسْ إِلَى أُمَرَائِهِمْ وَأَشْرَافِهِمْ فَأَعْطِهِمْ مِنَ الْمَالِ عَلَى أَقْدَارِهِمْ، وَانْظُرْ إِذَا وَافَيْتَهُمْ، فَلا تَنْزِلَنَّ بِهِمْ نَهَارًا فَيَرَوْا عَسْكَرَكَ، وَيَعْلَمُوا مَا فِيهِ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ انْزِلْ بِهِمْ لَيْلا عِنْدَ وَقْتِ نَوْمِهِمْ، ثُمَّ ارْعُوا إِبِلَكُمْ وَحَرِّكُوا أَسْلِحَتَكُمْ، وَهَوِّلُوا عَلَيْهِمْ مَا قَدَرْتُمْ، وَإِنْ أَظْفَرَكُمُ اللهُ بِطُلَيْحَةَ بْنِ خُوَيْلِدٍ وَأَصْحَابِهِ، فَسِرْ نَحْوَ الْبِطَاحِ مِنْ أَرْضِ تَمِيمٍ، إِلَى مَالِكِ بْنِ نُوَيْرَةَ وَأَصْحَابِهِ وَلَعَلِّي آتِيكَ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى إِنْ قَدَرْنَا عَلَى ذَلِكَ، إِنْ شَاءَ اللهُ، وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ" **وفي رسالة أبي بكر لهم قبل حربهم:** " فَقَدْ وَجَّهْتُ إِلَيْكُمْ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، فِي جَيْشِ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَأَمَرْتُهُ أَنْ لا يُقَاتِلَ أَحَدًا حَتَّى يَدْعُوَهُ إِلَى اللهِ وَيَعْذِرُ إِلَيْهِ وَيُنْذِرُ، فَمَنْ دَخَلَ فِي الطَّاعَةِ وَسَارَعَ إِلَى الْجَمَاعَةِ، وَرَجَعَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ إِلَى مَا كَانَ يَعْرِفُ مِنْ دِينِ الإِسْلامِ، ثُمَّ تَابَ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَعَمِلَ صَالِحًا، قَبِلَ اللهُ مِنْهُ ذَلِكَ، وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ أَبَى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الإِسْلامِ بَعْدَ أَنْ يَدْعُوَهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَيَعْذِرَ إِلَيْهِ، فَقَدْ أَمَرْتُهُ أَنْ يُقَاتِلَهُ أَشَدَّ الْقِتَالِ، بِنَفْسِهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ أَنْصَارِ دِينِ اللهِ وَأَعْوَانِهِ، لا يَتْرُكْ أَحَدًا قَدَرَ عَلَيْهِ إِلا أَحْرَقَهُ بِالنَّارِ إِحْرَاقًا، وَيَسْبِي الذَّرَارِيَّ وَالنِّسَاءَ، وَيَأْخُذَ الأَمْوَالَ، فَقَدْ أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ، وَالسَّلامُ عَلَى عِبَادِ اللهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ." [كتاب الردة للواقدي]

الْجَنَّةِ، فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ، وَأَمَّا أَنْ لَا نَدِيَ قَتْلَاهُمْ، فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ، وَأَمَّا أَنْ يَدُوا قَتْلَانَا فَلَا قَتْلَانَا قُتِلُوا عَنْ أَمْرِ اللهِ، فَلَا دِيَاتٍ لَهُمْ، فَتَتَابَعَ النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ "[مصنف بن أبي شيبة/ 33273]

***

أما الذين بقوا على إسلامهم، ولكنهم منعوا الزكاة، وخلعوا الطاعة فكان لهم شأن آخر نذكره بالتفصيل لما في ذلك من أهمية بالغة:

فمن بقوا على إسلامهم، ولكنهم منعوا الزكاة (مالك بن نويرة وقومه). قال مالك لقومه: "(يا بني تميم، إنكم قد علمتم بأن محمد بن عبد الله كان قد جعلني على صدقاتكم قبل موته، وقد هلك محمد ومضى لسبيله ولا بد لهذا الأمر من قائم يقوم به، فلا تطمعوا أحداً في أموالكم، فأنتم أحق بها من غيركم)

وتم القبض عليه هو وزوجته، وبني عمه دون قتال، وذُهب بهم إلى خالد بن الوليد " فأمر خالد بضرب أعناق بني عمه بدياً، فقال القوم: (إنا مسلمون فعلام تضرب أعناقنا) ؟ قال خالد: (والله لأقتلنكم) ، فقال له شيخ منهم: (أليس قد نهاكم أبو بكر أن تقتلوا من صلى إلى القبلة) ، فقال خالد: (بلى قد أمرنا بذلك، ولكنكم لم تصلوا ساعة قط) . قال: فوثب أبو قتادة[1] إلى خالد بن الوليد، وقال: (إني أشهد أنه لا سبيل لك عليهم) ، قال خالد: (وكيف ذلك) ، قال: (لأني كنت في السرية التي قد وافتهم، فلما نظروا إلينا قالوا: من أنتم، قلنا: نحن المسلمون، فقالوا: ونحن المسلمون، ثم أذنا وصلينا وصلوا معنا). فقال خالد: (صدقت يا قتادة، إن كانوا قد صلوا معكم فقد منعوا الزكاة التي تجب عليهم، ولا بد من قتلهم)

قال: فرفع شيخ منهم صوته يقول:

يا معشر الأشهاد إن أميركم ... أمر الغداة ببعض ما لم يؤمر

حرمت عليه دماؤنا بصلاتنا ... والله يعلم أننا لم نكفر

إن تقتلونا تقتلوا إخوانكم ... والراقصات إلى منى والمشفر

---

[1] أبو قتادة هو الحارث بن ربعي الأنصاري الخزرجي السلمي، صحابي من الأبطال الولاة، اشتهر بكنيته (أبو قتادة) وكان يقال له: (فارس رسول الله) ، وفي الحديث: (خير فرساننا أبو قتادة) شهد الوقائع مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ابتداء من وقعة أحد، ولي مكة زمن علي بن أبي طالب.

قال: فلم يلتفت خالد بن الوليد إلى مقالة الشيخ، فقدمهم وضرب أعناقهم عن آخرهم. قال: وكان قتادة قد عاهد الله أن لا يشهد مع خالد مشهدا أبدا بعد ذلك اليوم.

قال: ثم قدم خالد مالك بن نويرة ليضرب عنقه، فقال مالك: (أتقتلني وأنا مسلم أصلي القبلة) ، فقال له خالد: (لو كنت مسلما لما منعت الزكاة ولا أمرت قومك بمنعها...). قال: فالتفت مالك بن نويرة إلى امرأته فنظر إليها ثم قال: (يا خالد، بهذا تقتلني). فقال خالد: (بل لله أقتلك برجوعك عن دين الإسلام، وجفلك لإبل الصدقة، وأمرك لقومك بحبس ما يجب عليهم من زكاة أموالهم)، قال: ثم قدمه خالد فضرب عنقه صبراً..

فيقال إن خالد بن الوليد تزوج بامرأة مالك." [كتاب الردة]

فكان موقف قتادة – رضي الله عنه – هو الموقف الصحيح، ولم يكن هناك من سبيل لخالد لقتلهم أبداً، فهم مسلمون بغاة، متى سلم المسلمون من عدوانهم، ومتى دخلوا في الطاعة حرُمت دمائهم، ولو كانوا أسرى حرُم قتلهم أبداً.

والموقف الآخر لخالد والمناقض لموقفه من مالك بن نويرة أنه في حربه لمسيلمة الكذاب وقومه هو: صُلحه – صلح مكر – مع مُجاعة رئيس قومه باليمامة، وخطب ابنته ! فكتب إليه أبو بكر يقول: "أما بعد يا ابن الوليد، فإنك فارغ القلب حسن العزاء عن المسلمين، إذ قد اعتكفت على النساء وبفناء بيتك ألف ومائتا رجل من المسلمين، منهم سبعمائة رجل من حملة القرآن، إن لم يخدعك مجاعة بن مرارة عن رأيك أن صالحك عنه صلح مكر، وقد أمكن الله منهم، أما والله يا خالد ما هي بنكر، وإنما شبيهة بفعلك بمالك بن نويرة، فسوأة لك ولأفعالك هذه القبيحة التي ساءتك في بني مخزوم والسلام" [كتاب الردة].

وفي مصنف عبد الرزاق: "عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ، قَالَ: خَرَجْنَا فِي الرِّدَّةِ حَتَّى إِذَا انْتَهَيْنَا إِلَى أَهْلِ أَبْيَاتٍ، حَتَّى طَلَعَتِ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ، فَأَرْشَفْنَا إِلَيْهِمُ الرِّمَاحَ، فَقَالُوا: مَنْ أَنْتُمْ؟ قُلْنَا: نَحْنُ عِبَادُ اللَّهِ، فَقَالُوا: وَنَحْنُ عِبَادُ اللَّهِ، فَأَسَرَهُمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ حَتَّى إِذَا أَصْبَحَ أَمَرَ أَنْ يُضْرَبَ أَعْنَاقُهُمْ "، قَالَ أَبُو قَتَادَةَ: فَقُلْتُ: " اتَّقِ اللَّهَ يَا خَالِدُ ! فَإِنَّ هَذَا لا يَحِلُّ لَكَ، قَالَ: اجْلِسْ فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْكَ فِي شَيْءٍ "، قَالَ: فَكَانَ أَبُو قَتَادَةَ يَحْلِفُ لا يَغْزُو مَعَ خَالِدٍ أَبَدًا، قَالَ: وَكَانَ الأَعْرَابُ هُمُ الَّذِينَ شَجَّعُوهُ عَلَى قَتْلِهِمْ مِنْ أَجْلِ الْغَنَائِمِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي مَالِكِ بْنِ نُوَيْرَةَ " [مصنف عبدالرزاق الصنعاني/ 18722]

وفي الطبقات الكبرى: "عَنْ أَبِي قَتَادَةَ، قَالَ: " كُنَّا مَعَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ حِينَ خَرَجَ إِلَى أَهْلِ الرِّدَّةِ، فَلَمَّا نَزَلَ بِالْبِطَاحِ ادُّعِيَ أَنَّ مَالِكَ بْنَ نُوَيْرَةَ ارْتَدَّ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ بِكَلامٍ بَلَغَهُ عَنْهُ، فَأَنْكَرَ مَالِكٌ ذَلِكَ، وَقَالَ: أَنَا عَلَى الإِسْلامِ، مَا غَيَّرْتُ وَلا بَدَّلْتُ. وَشَهِدَ لَهُ أَبُو قَتَادَةَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، فَقَدَّمَهُ خَالِدٌ وَأَمَرَ ضِرَارَ بْنَ الأَزْوَرِ الأَسَدِيَّ فَضَرَبَ عُنُقَهُ، وَأَمَرَ بِرَأْسِ مَالِكٍ فَجُعِلَ أَثَافِيًا

لِقِدْرٍ، وَكَانَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ شَعْرًا وَإِنَّ رَأْسَهُ لَيُدَخِّنُ، وَمَا خَلَصَتِ النَّارُ إِلَى شِوَائِهِ، وَقَبَضَ خَالِدٌ امْرَأَتَهُ أُمَّ مُتَمِّمٍ فَتَزَوَّجَهَا" [الطبقات الكبرى لابن سعد، (8 : 553)]

وكان لعمر بن الخطاب موقفاً شديداً من خالد في أمر مالك بن نويرة: "فعَنِ ابْنِ عَوْنٍ، قَالَ: " بَلَغَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَتْلُهُ مَالِكَ بْنَ نُوَيْرَةَ وَتَزَوُّجُهُ امْرَأَتَهُ، فَقَالَ لأَبِي بَكْرٍ: إِنَّهُ قَدْ زَنَى، فَارْجُمْهُ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: " مَا كُنْتُ لأَرْجُمَهُ، تَأَوَّلَ فَأَخْطَأَ ".قَالَ: فَإِنَّهُ قَدْ قَتَلَ مُسْلِمًا، فَاقْتُلْهُ.قَالَ: " مَا كُنْتُ لأَقْتُلَهُ بِهِ، تَأَوَّلَ فَأَخْطَأَ ".قَالَ: فَاعْزِلْهُ، قَالَ: " مَا كُنْتُ لأُشِيمَ سَيْفًا سَلَّهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا ".[الطبقات الكبرى/ (8 : 553)]

وفي تاريخ خليفة بن خياط:" قَدِمَ أَبُو قَتَادَةَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ فَأَخْبَرَهُ بِمَقْتَلِ مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ، فَجَزِعَ مِنْ ذَلِكَ جَزَعًا شَدِيدًا، فَكَتَبَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى خَالِدٍ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هَلْ يَزِيدُ خَالِدٌ عَلَى أَنْ يَكُونَ تَأَوَّلَ فَأَخْطَأَ. وَرَدَّ أَبُو بَكْر خَالِدًا، وَوَدَى مَالِكَ بْنَ نُوَيْرَةَ وَرَدَّ السَّبْيَ وَالْمَالَ" [تاريخ خليفة بن خياط/ (1 : 53)]

وفي البلدان وفتوحها: "يقال إن مالكا قَالَ لخالد إني والله ما ارتددت، وشهد أَبُو قتادة الأنصاري أن بني حنظلة وضعوا السلاح وأذنوا، فقال عُمَر بْن الخطاب لأبي بكر رضي اللَّه عنهما: بعثت رجلا يقتل المسلمين ويعذب بالنار" [البلدان وفتوحها، للبلاذري: (1 : 113)]

وفي تاريخ الطبري: "حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَلَمَةُ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ مِنْ عَهْدِهِ إِلَى جُيُوشِهِ أَنْ: " إِذَا غَشِيتُمْ دَارًا مِنْ دُورِ النَّاسِ فَسَمِعْتُمْ فِيهَا أَذَانًا لِلصَّلاةِ فَأَمْسِكُوا عَنْ أَهْلِهَا حَتَّى تَسْأَلُوهُمْ مَا الَّذِي نَقَمُوا، وَإِنْ لَمْ تَسْمَعُوا أَذَانًا فَشِنُّوا الْغَارَةَ فَاقْتُلُوا وَحَرِّقُوا "، وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ لِمَالِكٍ بِالإِسْلامِ أَبُو قَتَادَةَ الْحَارِثُ بْنُ رِبْعِيٍّ أَخُو بَنِي سَلَمَةَ، وَقَدْ كَانَ عَاهَدَ اللَّهَ أَلا يَشْهَدَ مَعَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ حَرْبًا أَبَدًا بَعْدَهَا.وَكَانَ يُحَدِّثُ أَنَّهُمْ لَمَّا غَشُوا الْقَوْمَ رَاعُوهُمْ تَحْتَ اللَّيْلِ، فَأَخَذَ الْقَوْمُ السِّلاحَ، قَالَ: فَقُلْنَا: إِنَّا الْمُسْلِمُونَ.فَقَالُوا: وَنَحْنُ الْمُسْلِمُونَ.قُلْنَا: فَمَا بَالُ السِّلاحُ مَعَكُمْ؟ قَالُوا لَنَا: فَمَا بَالُ السِّلاحُ مَعَكُمْ؟ قُلْنَا: فَإِنْ كُنْتُمْ كَمَا تَقُولُونَ فَضَعُوا السِّلاحَ.قَالَ: فَوَضَعُوهَا ثُمَّ صَلَّيْنَا وَصَلُّوا وَكَانَ خَالِدٌ يَعْتَذِرُ فِي قَتْلِهِ، أَنَّهُ قَالَ لَهُ وَهُوَ يُرَاجِعُهُ: مَا أَخَالُ صَاحِبَكُمْ إِلا وَقَدْ كَانَ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: أَوَمَا تَعُدُّهُ لَكَ صَاحِبًا؟ ثُمَّ قَدَّمَهُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ وَأَعْنَاقَ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا بَلَغَ قَتْلَهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ تَكَلَّمَ فِيهِ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ فَأَكْثَرَ، وَقَالَ: عَدُوُّ اللَّهِ عَدَى عَلَى امْرِئٍ مُسْلِمٍ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ نَزَا عَلَى امْرَأَتِهِ، وَأَقْبَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ قَافِلا حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَعَلَيْهِ قِبَاءٌ لَهُ عَلَيْهِ صَدَأُ الْحَدِيدِ، مُعْتَجِرًا بِعِمَامَةٍ لَهُ قَدْ غَرَزَ فِي عِمَامَتِهِ أَسْهُمًا، فَلَمَّا أَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَامَ إِلَيْهِ عُمَرُ فَانْتَزَعَ الأَسْهُمَ مِنْ رَأْسِهِ فَحَطَّمَهَا، ثُمَّ قَالَ: أرئاء امْرَأً مُسْلِمًا ثُمَّ نَزَوْتَ عَلَى امْرَأَتِهِ، وَاللَّهِ لأَرْجُمَنَّكَ بِأَحْجَارِكَ، وَلا يُكَلِّمُهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَلا يَظُنُّ إِلا أَنَّ رَأْيَ أَبِي بَكْرٍ عَلَى مِثْلِ رَأْيِ عُمَرَ فِيهِ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا أَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ أَخْبَرَهُ الْخَبَرَ وَاعْتَذَرَ

إِلَيْهِ، فَعَذَرَهُ أَبُو بَكْرٍ وَتَجَاوَزَ عَنْهُ مَا كَانَ فِي حَرْبِهِ تِلْكَ. قَالَ: فَخَرَجَ خَالِدٌ حِينَ رَضِيَ عَنْهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: هَلُمَّ إِلَيَّ يَا ابْنَ أُمِّ شَمْلَةَ. قَالَ: فَعَرَفَ عُمَرُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَدْ رَضِيَ عَنْهُ فَلَمْ يُكَلِّمْهُ وَدَخَلَ بَيْتَهُ، وَكَانَ الَّذِي قَتَلَ مَالِكَ بْنِ نُوَيْرَةَ عَبْدُ بْنُ الأَزْوَرِ الأَسَدِيُّ." [تاريخ الطبري: (3 : 140)]

وفي تاريخ الإسلام للذهبي: "قَالَ قتادة: تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِمَالِكِ بْنِ نُوَيْرَةَ عَهْدٌ وَأَنَّهُ ادَّعَى إِسْلَامًا، وَإِنِّي نَهَيْتُ خَالِدًا فَتَرَكَ قَوْلِي، وَأَخَذَ بِشَهَادَاتِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْغَنَائِمَ، فَقَامَ عُمَرُ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ فِي سَيْفِ خَالِدٍ رَهَقًا، وَإِنَّ هَذَا لَمْ يَكُنْ حَقًّا، فَإِنَّ حَقًّا عَلَيْكَ أَنْ تُقَيِّدَهُ، فَسَكَتَ أَبُو بَكْرٍ، وَمَضَى خَالِدٌ قِبَلَ الْيَمَامَةِ، وَقَدِمَ مُتَمِّمُ بْنُ نُوَيْرَةَ، فَأَنْشَدَ أَبَا بَكْرٍ مَنْدَبَةً نَدَبَ بِهَا أَخَاهُ، وَنَاشَدَهُ فِي دَمِ أَخِيهِ وَفِي سَبْيِهِمْ، فَرَدَّ إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ السَّبْيَ، وَقَالَ لِعُمَرَ وَهُوَ يُنَاشِدُ فِي الْقَوَدِ: لَيْسَ عَلَى خَالِدٍ مَا تَقُولُ، هَبْهُ تَأَوَّلَ فَأَخْطَأَ".

فرغم بسالة خالد – رضي الله عنه – وسيفه المسلول على أعداء الإسلام، وبلاءه الحسن في الإسلام، إلا أنه بشر يخطئ ويصيب، وما علينا إلا مباركة الصواب والاقتداء به، والإنكار على الخطأ والبراءة منه، كما تبرأ النبي ﷺ من فعله في قتل بعض الأبرياء ! ولكن المصيبة أن نجعل من أخطاء الكبار والعظماء منهجاً لنا ودليلاً !

فمقتل مالك بن نويرة كان خطئاً فادحاً، فقد أقر وقومه بالإسلام، وأقاموا الصلاة.. وقضية الزكاة طالما لم يُرفع فيها سلاح فقد حرُم القتال، وإذا منعوها بقوة السلاح، قُتلوا قتال البغاة، وحرمت دمائهم متى استسلموا أو طلبوا العفو والصلح، وسنذكر لاحقاً – إن شاء الله – أقوال المذاهب الفقهية في ذلك.

وبذلك نجد إجماع الصحابة الكبار: أبو بكر ، وعمر، وابن عمر، وقتادة – وهو الشاهد على الواقعة – على حرمة دماء هذه الفئة.

وهناك رواية للطبري عن سيف بن عمر، تقول إن مالكاً قُتل خطئاً عن طريق جند خالد، وإن صحت هذه الرواية فهذا ما يؤكد من ذهبنا إليه، إلا أن سيف بن عمر لم يوثقه أي أحد، وهو متهم في دينه على حد قول علماء الجرح والتعديل.

***

الصنف الأخير وهم أهل اليمن من بني كندة، وهؤلاء قوم بقوا على الإسلام، ولكنهم أعلنوا العصيان، ومنعوا الزكاة، والخروج على الحاكم.

والحرب التي وقعت في اليمن أرى فيها شيء من عادات العرب في الجاهلية فكان فيها (الأنفة، والعصبية، والانتقام، والثأر)..

فأهل اليمن لم يرتدوا ولكنهم رفضوا أن يكونوا عبيداً لقريش – على حد تعبيرهم – ورفضوا أن يدفعوا "إتاوة" لقريش.. هكذا كانت رؤيتهم – كما قال شاعرهم: وما مثلنا يعطي على القسر ماله... ونحن ملوك الناس من قبل تُبّع – ولم يروا كذلك أن أبي بكر أحق بالخلافة، والأحق بها رجل من آل البيت، وإنهم لم يبايعوا أبا بكر، وليس له عليهم طاعة، ومن ثم لن يدفعوا له زكاة.

فكانوا يقولون: "نحن إنما أطعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ كان حيا، ولو قام رجل من أهل بيته لأطعناه، وأما ابن أبي قحافة فما له طاعة في رقابنا ولا بيعة"

ومن شعرهم:

أطعنا رسول الله إذ كان وسطنا ... فيا عجبا ما شأني وشأن أبي بكر

أنعطي قريشا مالنا إن هذه ... لتلك التي يخزى بها المرء في القبر

وما لبني تيم بن مرة إمرة ... علينا ولا تلك القبائل من فهر

لأن رسول الله أوجب طاعة ... وأولى بما استولى عليهم من الأمر

وكان الأشعث بن قيس – رئيس قبائل كندة – يقول: "يا معشر كندة، إن كنتم على ما أرى، فلتكن كلمتكم واحدة، والزموا بلادكم وحوطوا حريمكم، وامنعوا زكاة أموالكم، فإني أعلم أن العرب لا تقر بطاعة بني تيم بن مرة وتدع سادات البطحاء من بني هاشم إلى غيرها، وإنها لنا أجود، ونحن له أحرى، وأصلح من غيرنا، لأنا الملوك وأبناء الملوك من قبل أن يكون على وجه الأرض قرشي ولا أبطحي، ثم أنشأ الأشعث يقول:

لعمري لئن كانت قريش تتابعت ... على بيعة بعد الرسول وسمحوا

بها لبني تيم بن مرة جهرة ... وسموا عتيقا [أي أبو بكر] عند ذاك وصرحوا

أميرا ونحوا عنه آل محمد ... وكانوا بها أولى هناك وأصلح

وإن صلحت في تيم مرة إمرة ... ففي كندة الأملاك أحرى وأصلح

لأنا ملوك الناس من قبل أن يرى ... على الأرض تيمي ولا متبطح" [كتاب الردة]

فكانوا متشيعون لآل البيت، فعندما دعاهم زياد بن لبيد[1] للسمع والطاعة، فأقبل إليه رجل من سادات القوم يقال له الحارث بن معاوية، فقال له: يا زياد، إنك لتدعو إلى الطاعة لرجل لم يعهد إلينا ولا إليكم فيه عهد، فقال له زياد بن لبيد: صدقت، فإنه لم يعهد إلينا ولا إليكم فيه عهد، ولكن اخترناه لهذا الأمر، فقال له الحارث: أخبرني فلم نحيتم عنها أهل بيته، وهم أحق الناس بها، لأن الله عز وجل يقول: { وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله } فقال له زياد بن لبيد: إن المهاجرين والأنصار أنظر لأنفسهم منك، فقال له الحارث بن معاوية: لا والله، ما أزلتموها عن أهلها إلا حسداً منكم لهم، وما يستقر في قلبي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، خرج من الدنيا ولم ينصب للناس علماً يتبعونه، فارحل عنا أيها الرجل، فإنك تدعو إلى غير رضا، ثم أنشأ الحارث يقول :

كان الرسول هو المطاع فقد مضى ... صلى عليه الله لم يستخلف

هذا مقالك يا زياد فقد أرى ... أن قد أتيت بقول سوء مخلف

ومقالنا أن النبي محمداً ... صلى عليه الله غير مكلف

ترك الخلافة بعده لولاته ... ودعا زياد لامرئ لم يعرف

إن كان لابن أبي قحافة إمرة ... فلقد أتى في أمره بتعسف

أم كيف سلمت الخلافة هاشم ... لعتيق تيم كيف ما لم تأنف" [كتاب الردة]

وللأسف وقعت الحرب بين قبائل كندة، وقبائل قريش، وكان القتال شديداً - والقتلى كثر - والسبب في إشعال فتيلها ناقة واحدة ! لم يرد "زياد بن لبيد" عامل أبي بكر أن يتركها لفتى من كندة ويأخذ غيرها !

ولما كثر القتل، وكان النصر لكندة - في أول الأول - كتب إليهم أبو بكر: " من عبد الله بن عثمان خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى أمته، إلى الأشعث بن قيس ومن معه من قبائل كندة، أما بعد، فإن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه المنزل على نبيه عليه السلام: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون } ، وأنا آمركم بتقوى الله وحده وأنهاكم أن تنقضوا عهده، وأن ترجعوا عن دينه إلى غيره، ولا تتبعوا الهوى فيضلكم عن سبيل الله، وإن كان إنما حملكم عن الرجوع عن دين الإسلام ومنع الزكاة ما فعله بكم عاملي زياد بن لبيد، فإني أعزله عنكم، وأولي عليكم من

---

[1] وهو من الأنصار ولاه رسول الله ﷺ حضرموت.

تحبون، وقد أمرت صاحب كتابي هذا إن أنتم قبلتم الحق أن يأمر زياداً بالانصراف عنكم، فارجعوا إلى الحق وتوبوا من قريب، وفقنا الله وإياكم لكل ما كان فيه رضى، والسلام"

" فلما وصل الكتاب إلى الأشعث وقرأه، أقبل على الرسول وقال: (إن صاحبك أبا بكر هذا يلزمنا الكفر بمخالفتنا له، ولا يلزم صاحبه الكفر بقتله قومي) ، فقال له الرسول: (نعم يا أشعث يلزمك الكفر، إن الله تبارك وتعالى قد أوجب عليك الكفر لمخالفتك لجماعة المسلمين) ." [كتاب الردة]

وللأسف قُتل رسول أبي بكر، واستمر القتال ! وحصار جند أبي بكر حصاراً شديداً، فلما وصل خبر ذلك لأبي بكر: "نادى في المسلمين، ثم قال: (أشيروا علي ما الذي أصنع في أمر كندة) . قال: فتكلم أبو أيوب الأنصاري فقال: اسمع ما أشير به عليك، إن القوم كثير عددهم، وفيهم نخوة الملك ومنعة، وإذا هموا بالجمع جمعوا خلقاً كثيراً، فلو صرفت عنهم الخيل في عامك هذا، وصفحت عن أموالهم لرجوت أن ينيبوا إلى الحق، وأن يحملوا الزكاة إليك بعد هذا العام طائعين غير مكرهين، فذاك أحب إلي من محاربتك إياهم، فقد علمت أنهم فوارس أبطال لا يقوم لهم إلا نظراؤهم من الرجال) . قال: فتبسم أبو بكر رضي الله عنه من أبي أيوب، ثم قال: (والله يا أبا أيوب، لو منعوني عقالا واحدا مما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وضعه عليهم لقاتلتهم أبدا، أو ينيبوا إلى الحق) . قال: فسكت أبو أيوب."

وتم إرسال عكرمة بن أبي جهل للالتحاق بجند زياد بن لبيد، ويبدو أن موضوع هذا القتال كان محل رفض من بعض الصحابة، فعندما دعى عكرمة جرير بن عبد الله البجلي[1] – رضي الله عنه – في بني عمه من بجيلة، فدعاه عكرمة إلى حرب الأشعث، فأبى عليه جرير، ولم يجب إلى ذلك .

وفي أثناء ذلك تحزبت قبائل اليمن لصالح الأشعث وبني عمومتهم فقرروا محاربة عكرمة وطرد عامل أبي بكر "حذيفة بن عمرو" (على مأرب ودبا) وعندما انتصر عليهم جيش عكرمة فأرسلوا إلى عاملهم حذيفة بن عمرو، ويسألونه الصلح على أنهم يؤدون الزكاة ويرجعون إلى محبته، وينصرف عنهم عكرمة. فأرسل إليهم عاملهم: (أنه لا صلح بيننا وبينكم، إلا على الإقرار منكم أنا على الحق وأنتم على باطل، وأن قتيلنا في الجنة وقتيلكم في النار، وعلى أنا نحكم فيكم بما رأينا) .

---

[1] "جرير بن عبد الله البجلي الصحابي، قال: جئت إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأسلم، فقال له: ما جاء بك، قلت: جئت لأسلم، فألقى إلي كساءه وقال: (إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه) ، ثم قدم المدينة وحارب قريشا وغيرهم وفتح مكة، كان جرير جميلا، قال عمر: هو يوسف هذه الأمة، وقدمه عمر في حروب العراق على جميع بجيلة، وكان لهم أثر عظيم في فتح القادسية".

قال: فأجابوه إلى ذلك، فأرسل إليهم: أن اخرجوا الآن عن مدينتكم بلا سلاح، ففعلوا ذلك، ودخل المسلمون إلى حصنهم، فقتلوا أشرافهم، وسبوا نساءهم وأولادهم، وأخذوا أموالهم، ووجه برجالهم إلى أبي بكر وهم ثلاث مائة رجل من المقاتلة، وأربع مائة من النساء والذراري، فهم أبو بكر بقتل رجالهم، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إن القوم على دين الإسلام، لأني أجدهم يحلفون بالله مجتهدين ما رجعوا عن دين الإسلام، ولكن شحوا على أموالهم، وقد كان منهم ما كان فلا تعجل عليهم، واحبسهم عندك إلى أن ترى فيهم رأيك) .

قال: فأمر بحبسهم، فحبسوا في دار رملة بنت الحارث فلم يزالوا هناك إلى أن توفي أبو بكر رضي الله عنه، فدعاهم عمر، ثم قال لهم: (إنكم تعرفون أن ما كان من رأي أبي بكر ما كان من رأي، وقد مات أبو بكر، وقد أفضى الأمر إلي، فانطلقوا إلى أي بلد شئتم، فأنتم أحرار لوجه الله تعالى، فلا فدية عليكم) . [كتاب الردة]

وقد وقع خلاف بين عكرمة وزياد لما ترك عكرمة قتال القبائل بعد دعوى الأمان، واتهم زياد عكرمة بأنه جبن عن قتال القوم وإبادتهم ! فقال له عكرمة: "إنك أظلم وأغشم وأجبن قلباً، وأشح نفساً، وأيبس كفاً، إذ قاتلت هؤلاء القوم، وأنشبت هذه الحرب بينك وبينهم بسبب ناقة واحدة، لا أقل ولا أكثر، ولو لم أعنك بجنودي هؤلاء لعلمت أنك تكون رهين سيوفهم، وأسير جوامعهم" [كتاب الردة]

وقد أخذ الأشعث الأمان لنفسه وبني عمومته، بعد حصارهم.. وقد وصل كتاب أبي بكر لزياد وفيه: " (أما بعد يا زياد، فقد بلغني أن الأشعث بن قيس قد سألك الأمان، وقد نزل على حكمي، فإذا ورد عليك كتابي هذا، فاحمله إلي مكرماً، ولا تقتلن أحداً من أشراف كندة، صغيراً ولا كبيراً، والسلام) .

وسيق الأشعث وقومه إلى المدينة أسيراً، فقال عمر بن الخطاب: "(يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، هذا الأشعث بن قيس، قد كان مسلما وآمن بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقرأ القرآن، وحج البيت الحرام، ثم إنه رجع عن دينه وغير وبدل، ومنع الزكاة، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من بدل دينه فاقتلوه»، وقد وسع الله عليك فيه، فاقتله فدمه حلال) . فقال الأشعث: (يا خليفة رسول الله، إني ما غيرت ولا بدلت ولا شححت على مال، ولكن عاملك زيادا جار على قومي، فقتل منهم من لا ذنب له، فأنفت لذلك، وانتصرت لقومي فقاتلته، وقد كان مني ما قد كان، فإني أفدي نفسي وهؤلاء الملوك، وأطلق كل أسير في بلاد اليمن وأكون عوناً لك وناصراً ما بقيت، على أنك تزوجني أم فروة بنت أبي قحافة [أخت أبي بكر] ، فإني لك نعم الصهر، فهذا خير مما يقول عمر بن الخطاب) .

قال: فأطرق أبو بكر رضي الله عنه، ثم رفع رأسه وقال: (إني قد فعلت) .

قال: ثم أطلقه أبو بكر – رضي الله عنه – من حديده، وأطلق من كان معه من ملوك كندة، ثم أمره فجلس، وزوجه أبو بكر– رضي الله عنه – أخته أم فروة بنت أبي قحافة وأحسن إليه غاية الإحسان، وكان الأشعث بن قيس عند أبي بكر رضي الله عنه بأفضل المنازل وأرفعها" [كتاب الردة]

ونلحظ أن موقف حذيفة بن عمرو عامل أبي بكر كان متشدداً غاية التشدد فقد حكم على قتلى المتمردين بأنهم في النار، وقتل أشرافهم وسبى نسائهم ! في نفس الوقت الذي يشهد لهم عمر بن الخطاب بأنهم على دين الإسلام، ومنع أبي بكر من قتلهم، ثم عفى عنهم في النهاية.

ونلحظ موقف أبي بكر من الأشعث الذي أكرمه وأحسن إليه وزوجه أخته، ومنع زياد من قتلهم، في الوقت الذي كان فيه عمر يرى قتلهم !.

وهناك رواية أخرى تقول إن عمر كان يرى العفو في كل الأحوال فعن "عَبْدُ الرَّحِيمِ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ أَبِي هِنْدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَامِرٌ، أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، حَدَّثَهُ أَنَّ نَفَرًا مِنْ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ، وَلَحِقُوا بِالْمُشْرِكِينَ، فَقُتِلُوا فِي الْقِتَالِ، فَلَمَّا أَتَيْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ بِفَتْحِ تُسْتَرَ، قَالَ: " مَا فَعَلَ النَّفَرُ مِنْ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ؟ " قَالَ: قُلْتُ عَرَضْتُ فِي حَدِيثٍ آخَرَ لِأَشْغِلَهُ عَنْ ذِكْرِهِمْ، قَالَ: " مَا فَعَلَ النَّفَرُ مِنْ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ؟ " قَالَ: قُلْتُ: قُتِلُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: " لَوْ كُنْتَ أَخَذْتَهُمْ سَلْمًا كَانَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ مِنْ صَفْرَاءَ وَبَيْضَاءَ "، قَالَ: قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا كَانَ سَبِيلُهُمْ لَوْ أَخَذْتُهُمْ إِلَّا الْقَتْلَ، قَوْمٌ ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ وَلَحِقُوا بِالشِّرْكِ، قَالَ: " كُنْتُ أَعْرِضُ أَنْ يَدْخُلُوا فِي الْبَابِ الَّذِي خَرَجُوا مِنْهُ، فَإِنْ فَعَلُوا قَبِلْتُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَإِنْ أَبَوُا اسْتَوْدَعْتُهُمُ السِّجْنَ " [مصنف ابن أبي شيبة/ 33279]

ولقد عفى أبو بكر عن "عيينة بن حصن" الذي قاتل مع مُدعي النبوة "طليحة بن خويلد" ومما جاء في ذلك: " أُوتي بعيينة بن حصن حتى أُدخل على أبي بكر رضي الله عنه، فأوقفه بين يديه، فقال له أبو بكر: (يا عدو الله، أسلمت وقرأت القرآن ثم رجعت عن دين الإسلام كافرا، لأضربن عنقك صبرا) . قال عيينة: (يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إن الجميل أجمل، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعرف بي منك، لم يخف عليه شيء من أمري، ولقد خرج من الدنيا وإني لمقيم على النفاق، غير أني تائب إلى الله وإليك في يومي هذا، فاعف عني، عفا الله عنك) .

فعفا عنه أبو بكر رضي الله عنه، وصفح عن بني عمه، وأحسن إليهم وكساهم" [كتاب الردة]

بل إن مدعي النبوة طليحة تم العفو عنه كذلك ! : " وبلغ طليحة بن خويلد أن عيينة بن حصن وقرة بن هبيرة قد حملا إلى المدينة، وقد عفا عنهما أبو بكر رضي الله عنه، فندم على ما كان منه أشد الندامة، [وأرسل شعراً لأبي بكر يستعطفه] قال: فلما انتهى شعره إلى أبي بكر رضي الله عنه، وقرئ عليه، رق أبو بكر له رقة شديدة، وعلم أنه ندم على ما كان منه.

قال: وجعل طليحة بن خويلد يقدم في الرجوع إلى دار الإسلام ويؤخر، إلى أن توفي أبو بكر واستخلف عمر رضي الله عنهما، فقدم عليه طليحة مسلما تائبا، فلما رآه عمر قطب في وجهه، ثم قال: «يا طليحة، كيف ترجو النجاة من النار وقتلت ثابت بن أرقم الأنصاري، وعكاشة بن محصن الأسدي»، وقال طليحة: «يا أمير المؤمنين ذلكما رجلان أكرمهما الله بالجنة، وساق إليهما الشهادة على يدي ولم يقتلني بأيديهما فأكون في النار» . قال: فأعجب عمر بمقالته فقربه وأدناه، وأقام طليحة عنده إلى أن تحركت الفرس بعد ذلك، فوجه به مع سعد بن أبي وقاص، فقاتل بالعراق قتالاً شديداً، وقاتل أيضا بنهاوند، ولم يزل ناصر الدين الإسلام حتى لحق بالله." [كتاب الردة]

وفي الاستيعاب، وسير أعلام النبلاء ترجمة طليحة: "طليحة بن خويلد الأسدي، ارتد بعد النبي ﷺ وادعى النبوة، وكان فارساً مشهوراً بطلاً، واجتمع عليه قومه، فخرج إليهم خالد بن الوليد في أصحاب النبي ﷺ فانهزم طليحة وأصحابه، وقتل أكثرهم، وكان طليحة قد قتل هو وأخوه عكاشة بن محصن الأسدي، وثابت بن أقرم، ثم لحق بالشام، فكان عند بني جفنة حتى قدم مسلما مع الحاج المدينة، فلم يعرض له أبو بكر، ثم قدم زمن عمر بن الخطاب، فَقَالَ له عمر: أنت قاتل الرجلين الصالحين، يعني: ثابت بن أقرم، وعكاشة بن محصن، فَقَالَ: لم يهني الله بأيديهما وأكرمهما بيدي. فَقَالَ: والله لا أحبك أبداً. قَالَ: فمعاشرة جميلة يا أمير المؤمنين. ثم شهد طليحة القادسية، فأبلى فيها بلاء حسنا." [الاستيعاب في معرفة الأصحاب/ ابن عبد البر، سير أعلام النبلاء، للذهبي]

ونرى أن الأمور كلها كانت اجتهادية، وحسب ظروف وطبيعة كل حالة، وأن العفو والصفح كان هو الموقف الصحيح إذا استتبت الأمور.

***

ومن هذا يتأكد أن الذين بقوا على الإسلام، ولكنهم لم يدفعوا الزكاة أنفة أو بخلاً لم يكونوا كفاراً مرتدين، ولم يكن قتالهم كقتال الذين أعلنوا الردة وخرجوا من الإسلام..

ومن بقي على دين الإسلام، ولكنهم خرجوا على الحكام، وفارقوا الجماعة لم يكونوا أيضاً كفاراً مرتدين، ولم يكن قتالهم كقتال المرتدين، وما وقع من سبي أو قتل للأسير فهي أخطاء ربما كانت تقع باجتهاد خاطئ أو للثأر أو غير ذلك.

وبهذا يتبين خطأ من ظن أن مجرد "منع الزكاة" يحكم على الناس بالردة والخروج من دين الإسلام - كما قال ابن تيمية رحمه الله - ولم يكن هناك إجماعاً من الصحابة على ذلك، بل العكس هو الصحيح، وإن الأمر كان محل اجتهاد حسب موقف كل قبيلة، وطبيعة المعركة.

***

أحكام مانعي الزكاة في المذاهب الفقهية

المذهب الحنبلي:

قال ابن قدامة في المغني: كتاب قتال أهل البغي "والأصل في هذا الباب قول الله سبحانه: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله} [الحجرات: 9] . إلى قوله: {إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم} [الحجرات: 10] . ففيها خمس فوائد: أحدها أنهم لم يخرجوا بالبغي عن الإيمان، فإنه سماهم مؤمنين. الثانية، أنه أوجب قتالهم. الثالثة، أنه أسقط قتالهم إذا فاءوا إلى أمر الله. الرابعة، أنه أسقط عنهم التبعة فيما أتلفوه في قتالهم. الخامسة أن الآية أفادت جواز قتال كل من منع حقاً عليه...

وأجمعت الصحابة – رضي الله عنهم –، على قتال البغاة، فإن أبا بكر – رضي الله عنه – قاتل مانعي الزكاة، وعلي – رضي الله عنه – قاتل أهل الجمل وصفين وأهل النهروان." [المغني، لابن قدامة الحنبلي]

واشترط إسحاق بن راهويه أن "يُجمعوا على منع الزكاة، وناصبوا للقتال" [مسائل الإمام أحمد]

وقال ابن قدامة في (الكافي في فقه الإمام أحمد): "القسم الثالث من كتاب قتال أهل البغي: قوم من أهل الحق خرجوا على الإمام بتأويل سائغ، وراموا خلعه، ولهم منعة وشوكة، فهؤلاء بغاة، وواجب على الناس معونة إمامهم في قتالهم؛ لقول الله تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ} [الحجرات: 9] ، ولأن الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ – قاتلوا مانعي الزكاة، وقاتل علي – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أهل البصرة يوم الجمل، وأهل الشام بصفين، ولا يقاتلهم الإمام حتى يسألهم ما ينقمون منه، فإن اعتلوا بمظلمته أزالها، أو شبهة كشفها؛ لقول الله تعالى: {فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} [الحجرات: 9] وفي هذا إصلاح، ولأن عليا – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – راسل أهل البصرة يوم الجمل قبل الوقعة، وأمر أصحابه ألا يبدؤوهم بقتال، وقال: إن هذا يوم، من فلج فيه، فلج يوم القيامة...

وإذا قوتلوا لم يتبع لهم مدبر، ولم يجز على جريح، ولم يقتل لهم أسير، ولم يغنم لهم مال، ولم يسب لهم ذرية".

وفي العدة شرح العمدة لبهاء الدين المقدسي: " واجتمعت الصحابة – رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ – على قتال البغاة، وقاتل أبو بكر مانعي الزكاة، وعلي قاتل أهل البصرة يوم الجمل وأهل الشام يوم صفين وأهل النهروان"

وفي كشف القناع عن متن الإقناع لمنصور البهوتي الحنبلي: "(ولا يكفر) مانع الزكاة تهاونا أو بخلاً (بقتاله له) أي للإمام...

ولأن عمر وغيره امتنعوا ابتداء من قتال مانعي الزكاة ولو اعتقدوا كفرهم ما امتنعوا منه، ثم اتفقوا على القتال فبقي عدم التكفير على اعتقادهم الأول، وما روي عن الصديق أنه لما قاتل مانعي الزكاة وعضتهم الحرب قالوا، نؤديها قال "لا أقبلها حتى تشهدوا أن قتلانا في الجنة وأن قتلاكم في النار " يحتمل أنه فيمن منعها جحوداً ولحق بأهل الردة منهم فقد كان فيهم طائفة كذلك على أنه لا يلزم من الحكم بالنار الحكم بالكفر، بدليل العصاة من هذه الأمة لو فرق القاضي بين الصلاة وغيرها من العبادات بتعذر فيها والمقصود الأعظم دفع حاجة الفقير وهو حاصل بأدائها مع القتال."[1]

وقال ابن رجب في (جامع العلوم والحكم) (حديث أمرت أن أقاتل الناس): "ومن المعلوم بالضرورة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبل من كل من جاءه يريد الدخول في الإسلام الشهادتين فقط، ويعصم دمه بذلك، ويجعله مسلما، فقد «أنكر على أسامة بن زيد قتله لمن قال: لا إله إلا الله لما رفع عليه السيف، واشتد نكيره عليه» . ولم يكن صلى الله عليه وسلم يشترط على من جاءه يريد الإسلام أن يلتزم الصلاة والزكاة، بل قد روي أنه قبل من قوم الإسلام، واشترطوا أن لا يزكوا، ففي مسند الإمام أحمد، عن جابر قال: «اشترطت ثقيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا صدقة عليهم ولا جهاد، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سيتصدقون ويجاهدون» . وفيه أيضا عن نصر بن عاصم الليثي «عن رجل منهم أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فأسلم على أن لا يصلي إلا صلاتين، فقبل منه» . وأخذ الإمام أحمد بهذه الأحاديث، وقال: يصح الإسلام على الشرط الفاسد، ثم يلزم بشرائع الإسلام كلها، واستدل أيضا بأن حكيم بن حزام قال: «بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا أخر إلا قائما» . قال أحمد: معناه أن يسجد من غير ركوع. وخرج محمد بن نصر المروزي بإسناد ضعيف جدا عن أنس قال: «لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يقبل من أجابه إلى الإسلام إلا بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وكانتا فريضتين على من أقر بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالإسلام، وذلك قول الله عز وجل: {فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة} [المجادلة: 13] » وهذا لا يثبت، وعلى تقدير ثبوته، فالمراد منه أنه لم يكن يقر أحدا دخل في الإسلام على ترك الصلاة والزكاة وهذا حق، فإنه صلى الله عليه وسلم «أمر معاذا لما بعثه إلى اليمن أن يدعوهم أولا إلى الشهادتين، وقال: إن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم بالصلاة ثم بالزكاة» ومراده أن من صار مسلما بدخوله في الإسلام أمر بعد ذلك بإقام الصلاة، ثم بإيتاء الزكاة، وكان من سأله عن الإسلام يذكر له مع الشهادتين بقية

---

[1] "وفي رواية عن الإمام أحمد يحكم بكفر [مانعي الزكاة] ولا يورث ولا يصلى عليه ، لما روي أن أبا بكر لما قاتل مانعي الزكاة ، وعضتهم الحرب قالوا : نؤديها ، قال : لا أقبلها حتى تشهدوا أن قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار ، ووافقه عمر . ولم ينقل إنكار ذلك عن أحد من الصحابة فدل على كفرهم " وهو استدلال في غير محله، وغير صحيح، وهذه الرواية أولها البهوتي الحنبلي كما ذكر أعلاه، ذلك أن ما رُوي من ذلك كان في شأن المرتدين وليس مانعي الزكاة بتأويل أو بخل، كما أن عمر رضي الله عنه لم يوافق على ذلك بل أفرج عن أسرى هذه الحرب في عهده.

أركان الإسلام... وبهذا الذي قررناه يظهر الجمع بين ألفاظ أحاديث هذا الباب، ويتبين أن كلها حق، فإن كلمتي الشهادتين بمجردهما تعصم من أتى بهما، ويصير بذلك مسلما، فإذا دخل في الإسلام، فإن أقام الصلاة، وآتى الزكاة، وقام بشرائع الإسلام، فله ما للمسلمين، وعليه ما عليهم، وإن أخل بشيء من هذه الأركان، **فإن كانوا جماعة لهم منعة قوتلوا.** وقد ظن بعضهم أن معنى الحديث أن الكافر يقاتل حتى يأتي بالشهادتين، ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، وجعلوا ذلك حجة على خطاب الكفار بالفروع، وفي هذا نظر، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم في قتال الكفار تدل على خلاف هذا... وثبت أن «النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا غزا قوما لم يغر عليهم حتى يصبح فإن سمع أذانا وإلا أغار عليهم» مع احتمال أن يكونوا قد دخلوا في الإسلام. وكان يوصي سراياه: " «إن سمعتم مؤذنا أو رأيتم مسجدا، فلا تقتلوا أحدا»... فهذا كله يدل على أنه كان يعتبر حال الداخلين في الإسلام، فإن أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وإلا لم يمتنع عن قتالهم وفي هذا وقع تناظر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما... فأبو بكر رضي الله عنه أخذ قتالهم من قوله: " إلا بحقه " فدل على أن قتال من أتى بالشهادتين بحقه جائز، ومن حقه أداء حق المال الواجب، وعمر رضي الله عنه ظن أن مجرد الإتيان بالشهادتين يعصم الدم في الدنيا تمسكا بعموم أول الحديث كما ظن طائفة من الناس أن من أتى بالشهادتين امتنع من دخول النار في الآخرة تمسكا بعموم ألفاظ وردت، وليس الأمر على ذلك، ثم إن عمر رجع إلى موافقة أبي بكر رضي الله عنه... وحكم من ترك سائر أركان الإسلام أن يقاتلوا عليها كما يقاتلون على ترك الصلاة والزكاة. وروى ابن شهاب عن حنظلة بن علي الأسقع أن أبا بكر الصديق بعث خالد بن الوليد، وأمره أن يقاتل الناس على خمس، فمن ترك واحدة من الخمس، فقاتله عليها كما تقاتل على الخمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان. وقال سعيد بن جبير: قال عمر بن الخطاب: لو أن الناس تركوا الحج لقاتلناهم عليه، كما نقاتلهم على الصلاة والزكاة. فهذا الكلام في قتال الطائفة الممتنعة عن شيء من هذه الواجبات."

وفي دقائق أولي النهى: "ولا يكفر مانع زكاة غير جاحد إذا قاتل عليها بقتاله للإمام لقول عبد الله بن شقيق " كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة " رواه الترمذي وما ورد من التكفير فيه محمول على جاحد الوجوب أو التغليظ وإلا يمكن أخذها بقتاله، وهو في قبضة الإمام (استتيب ثلاثة أيام) لأنها من مباني الإسلام، فيستتاب تاركها كالصلاة.

فإن تاب وأخرج الزكاة كف عنه وإلا قتل لاتفاق الصحابة على قتال مانعها حداً لما تقدم أنه لا يكفر بذلك وأخذت الزكاة من تركته لو مات، والقتل لا يسقط دينا لآدمي، فكذا الزكاة." [دقائق أولي النهى لمنصور البهوتي الحنبلي]

***

المذهب المالكي:

في كتاب الذخيرة للقرافي (باب البغاة وأحكامهم): "وجوب قتالهم لقوله تعالى {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيئ إلى أمر الله} وفيها أربع فوائد الأولى أنه تعالى لم يخرجهم بالبغي عن الإيمان لأنه تعالى سماهم مؤمنين الثانية ثبوت قتالهم لأن الأمر للوجوب الثالثة سقوط قتالهم إذا فاؤوا إلى أمر الله الرابعة جواز قتال كل من منع حقا عليه وقاتل الصديق رضي الله عنه مانعي الزكاة بتأويل وقاتل علي رضي الله عنه البغاة الذين امتنعوا من بيعته وهم أهل الشام وطائفة خلعته وهم أهل القيروان"

وفي التاج والإكليل محمد بن يوسف المالكي (باب البغاة وأحكامهم): "[والباغي] وهو الذي يخرج على الإمام يبتغي خلفه أو يمتنع من الدخول في طاعته أو يمنع حقا وجب عليه بتأويل قاتل الصديق مانعي الزكاة بالتأويل وكذلك علي قاتل أهل الشام."

إذا امتنع أهل البغي ولو كانوا متأولين من الإمام العدل فله فيهم ما له في الكفار [أي: يدعوهم أولا للدخول تحت طاعته ما لم يعاجلوه بالقتال ويقاتلهم بالسيف] ولا يرميهم بالنار وأن لا يكون فيهم نساء ولا ذرية (ولا يسترقون) قال سحنون في الخوارج: سماهم النبي – صلى الله عليه وسلم – مارقين ولم يسمهم كفاراً، وسن علي – رضي الله عنه – قتالهم فلم يكفرهم ولا سباهم ولا أخذ أموالهم، فمواريثهم قائمة ولهم أحكام أهل الإسلام في ذلك، وإنما قوتلوا بالسنة وبما أحدثوا من البدعة فكان ذلك كحد يقام عليهم، ولا يتبعوا بما سفكوا من دم ونالوا من فرج لا بقود ولا بدية ولا صداق ولا حد (ولا تحرق أشجارهم ولا ترفع رءوسهم بأرماح) تقدم نص القرافي: لا تحرق مساكنهم ولا تقطع أشجارهم ولا يستعان على قتالهم بمشرك ولا يوادعهم على مال (ولا يدعوهم بمال)"

وفي حاشية الدسوقي على الشرح الكبير: باب البغي: "قتال أبي بكر مانعي الزكاة لزعم بعضهم أنه – عليه الصلاة والسلام –، أوصى بالخلافة لعلي وزعم بعضهم أن المخاطب بأخذها المصطفى بقوله تعالى {خذ من أموالهم صدقة} [التوبة: 103] الآية. و"فرق بين الكفار والبغاة في هذا ولهذا لم يذكره ابن شاس في الأمور التي يمتاز فيها قتالهم عن قتال الكفار ونصه يمتاز قتال البغاة عن قتال الكفار بأحد عشر وجها أن يقصد بالقتال ردعهم لا قتلهم وأن يكف عن مدبرهم ولا يجهز على جريحهم ولا تقتل أسراهم ولا تغنم أموالهم ولا تسبى ذراريهم ولا يستعان عليهم بمشرك ولا يوادعهم على مال ولا تنصب عليهم الرعادات ولا تحرق مساكنهم ولا يقطع شجرهم".

وقال القرطبي (المالكي) في تفسيره: "هذه الآية { وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا } دليل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على الإمام أو على أحد من المسلمين ، وعلى فساد قول من منع من قتال المؤمنين ، واحتج بقوله – عليه السلام – : (قتال المؤمن كفر) . ولو كان قتال المؤمن الباغي كفرا لكان الله تعالى قد أمر بالكفر ، تعالى الله عن ذلك! وقد قاتل الصديق – رضي الله عنه – : من تمسك بالإسلام وامتنع من الزكاة ، وأمر ألا يتبع مول ، ولا يجهز على جريح ، ولم تحل أموالهم ، بخلاف الواجب في الكفار . وقال الطبري : لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين الهرب منه ولزوم المنازل لما أقيم حد ولا أبطل باطل ، ولوجد أهل النفاق والفجور سبيلا إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين وسبي نسائهم وسفك دمائهم ، بأن يتحزبوا عليهم ، ويكف المسلمون أيديهم عنهم ، وذلك مخالف لقوله – عليه السلام – : (خذوا على أيدي سفهائكم)".

وفي تبصرة الحكام لابن فرحون المالكي: " [فصل في أحكام الخوارج والبغاة]

وهي على قسمين: أهل تأويل وأهل عناد، وقد قاتل أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنهما – الفريقين، لأن أبا بكر – رضي الله عنه – قاتل مانعي الزكاة، وكان بعضهم منعها شحا بماله وهم البغاة، وبعضهم منعها بالتأويل وقالوا زمان وجوبها قد انقضى، والمخاطب بأخذها قد مات – صلى الله عليه وسلم – وتأولوا أن قوله تعالى: {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم} [التوبة: 103] ، لا يتأتى ذلك من غيره ولم يقم دليل على قيام غيره في ذلك مقامه، وأما علي – رضي الله عنه – فقد قاتل أهل الشام وأهل البصرة، لأنهم أبوا الدخول في طاعته، وقد قال – صلى الله عليه وسلم – لعمار: تقتلك الفئة الباغية؟ وكان مع علي – رضي الله عنه – فقتله أهل الشام، وقاتل أهل النهروان وهم متأولون، وللإمام العدل خاصة في قتال الفريقين جميعا، ما له في قتال الكفار من القتل والتحريق والتغريق والرمي بالمنجنيق وإن كان فيهم النساء والذرية، ولكن بعد أن يدعوهم إلى الدخول في جماعة الإسلام، قال سحنون في كتاب ابنه إذا خرجوا بغيا ورغبة عن حكم الإمام، فإن الإمام يدعوهم أولا إلى الرجوع إلى الحق، فإن فعلوا قبل منهم وكف عنهم، وإن أبوا قاتلهم وحل له سفك دمائهم حتى يقهرهم."

***

المذهب الشافعي:

في الحاوي الكبير (باب من يجب قتاله من أهل البغي والسيرة فيهم):

قال الشافعي رحمه الله تعالى: قال الله تعالى: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين} [الحجرات: 9]) ...

{فقاتلوا التي تبغي} فيه وجهان: أحدهما: تبغي بالتعدي في القتال. والثاني: تبغي بالعدول عن الصلح.

وهذا الأمر بالقتال مخاطب به الولاة دون غيرهم. {حتى تفيء إلى أمر الله} أي ترجع، وفيه وجهان:

أحدهما: حتى ترجع إلى الصلح الذي أمر الله به. قاله سعيد بن جبير.

والثاني: حتى ترجع إلى كتاب الله وسنة رسوله، قاله قتادة {فإن فآءت} يعني: رجعت عن البغي. {فأصلحوا بينهما بالعدل} فيه وجهان:

أحدهما: بالحق. والثاني: بكتاب الله. {وأقسطوا} يعني: اعدلوا، ويحتمل وجهين:

أحدهما: اعدلوا في ترك الهوى والممايلة. والثاني: في ترك العقوبة والمؤاخذة. {إن الله يحب المقسطين} يعني العادلين.

قال أبو مالك: في القول والفعل.

فدلت هذه الآية على بقاء البغاة على إيمانهم.

ودلت على الابتداء بالصلح قبل قتالهم.

ودلت على وجوب قتالهم إن أقاموا على بغيهم.

ودلت على الكف عن القتال بعد رجوعهم.

ودلت على أن لا تباعة عليهم فيما كان بينهم. فهذه خمسة أحكام دلت عليها هذه الآية فيهم.

قال الشافعي: وفيها دلالة على أن كل من وجب عليه حق فمنع منه، وجب قتاله عليه حتى يؤديه.

فروى سلمة بن الأكوع وأبو هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: " من حمل علينا السلاح فليس منا" .

وروى ابن عباس أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: " من فارق الجماعة شبرا فقد خلع ربقة الإسلام عن عنقه) .

وأما الإجماع الدال على إباحة قتالهم: فهو منعقد عن فعل إمامين:

أحدهما: أبو بكر في قتال مانعي الزكاة.

والثاني: علي بن أبي طالب في قتال خلع طاعته.

فأما أبو بكر رضي الله عنه فإنه قاتل طائفتين:

طائفة: ارتدت عن الإسلام مع مسيلمة وطليحة والعنسي فلم يختلف عليه من الصحابة في قتالهم أحد.

وطائفة: أقاموا على الإسلام ومنعوا الزكاة بتأويل اشتبه، فخالفه أكثر الصحابة في الابتداء، ثم رجعوا إلى رأيه ووافقوه عليه في الانتهاء حين وضح لهم الصواب وزالت عنهم الشبهة.

ونحن نذكر شرحه من بعد مفصلاً، فكان انعقاد الإجماع معه بعد تقدم المخالفة له أوكد.

وأما علي بن أبي طالب رضي الله عنه فإنه شهد بنفسه قتال من بغى عليه، فأول من قاتل منهم أهل الجمل بالبصرة مع عائشة.

وثنى بقتال أهل الشام بصفين مع معاوية.

وثلث بقتال أهل النهروان من الخوارج.

فسار في قتالهم سيرة أبي بكر في قتال مانعي الزكاة.

فإذا ثبت بما ذكرنا من الكتاب والسنة والإجماع إباحة قتالهم على بغيهم، فقتالهم معتبر بثلاثة شروط متفق عليها، ورابع مختلف فيه.

أحدها: أن يكونوا في منعة، بكثرة عددهم، لا يمكن تفريق جمعهم إلا بقتالهم، فإن كانوا آحادا لا يمتنعون استوفيت منهم الحقوق ولم يقاتلوا.

قال الشافعي: قتل عبد الرحمن بن ملجم علياً رضوان الله عليه متأولا، فأقيد به.

يعني: أنه لما انفرد ولم يمتنع بعدد لم يؤثر تأويله في أخذ القود منه.

والشرط الثاني: أن يعتزلوا عن دار أهل العدل بدار ينحازون إليها ويتميزون بها كأهل الجمل وصفين:

فإن كانوا على اختلاطهم بأهل العدل، ولم ينفردوا عنهم: لم يقاتلوا.

روي أن عليا رضي الله عنه كان يخطب، فسمع رجلا يقول: لا حكم إلا لله – تعريضا بالرد عليه فيما كان من تحكيمه فقال علي: كلمة حق أريد بها باطل، لكم علينا ثلاث: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم معنا، ولا نبدؤكم بقتال.

والشرط الثالث: أن يخالفوه بتأويل محتمل كالذي تأوله أهل الجمل وصفين، من المطالبة بدم عثمان رضي الله عنه.

فإذا باينوا من غير تأويل، أجري عليهم حكم الحرابة وقطاع الطريق.

وأما الرابع المختلف فيه: فهو نصب إمام لهم يجتمعون على طاعته، وينقادون لأمره، ففيه وجهان:

أحدهما: وهو قول طائفة: إنه شرط يستحق به قتالهم، ليستقر به تميزهم ومباينتهم.

والوجه الثاني: وهو قول الأكثرين من أصحاب الشافعي: إنه ليس بشرط في قتالهم.

لأن عليا – عليه السلام – قاتل أهل الجمل ولم يكن لهم إمام، وقاتل أهل صفين قبل أن ينصبوا إماما لهم.

فإذا تكاملت الشروط المعتبرة في قتالهم، لم يبدأ به الإمام حتى يسألهم عن سبب انفرادهم ومباينتهم، فإن ذكروا مظلمة أزالها، وإن ذكروا شبهة كشفها وناظرهم عليها، حتى يظهر لهم أنه على الحق فيها، لأن الله تعالى أمر بالإصلاح أولا وبالقتال أخيرا."

"قال الشافعي رضي الله عنه: " وأهل الردة بعد النبي – صلى الله عليه وسلم – ضربان فمنهم قوم كفروا بعد إسلامهم مثل طليحة ومسيلمة والعنسي وأصحابهم ومنهم قوم تمسكوا بالإسلام ومنعوا الصدقات ولهم لسان عربي والردة ارتداده عما كانوا عليه بالكفر وارتداد بمنع حق كانوا عليه وقول عمر لأبي بكر رضي الله عنهما أليس قد قال رسول الله – صلى الله

عليه وسلم - " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله؟) وقول أبي بكر هذا من حقها لو منعوني عناقا مما أعطوه النبي - صلى الله عليه وسلم - لقاتلتهم عليها معرفة منهما معا أن ممن قاتلوا من تمسك بالإسلام ولولا ذلك لما شك عمر في قتالهم ولقال أبو بكر قد تركوا لا إله إلا الله فصاروا مشركين وذلك بين في مخاطبتهم جيوش أبي بكر وأشعار من قال الشعر منهم فقال شاعرهم:

(ألا أصبحينا قبل ثائرة الفجر ... لعل منايانا قريب وما ندري)

(أطعنا رسول الله ما كان بيننا ... فيا عجبا ما بالك ملك أبي بكر)

(فإن الذي سألوكم فمنعتم ... لكالتمر أو أحلى إليهم من التمر)

(سنمنعهم ما كان فينا بقية ... كرام على العزاء في ساعة العسر)

وقالوا لأبي بكر - رضي الله عنه - بعد الإسار ما كفرنا بعد إيماننا ولكنا شححنا على أموالنا فسار إليهم أبو بكر بنفسه حتى لقي أخا بني بدر الفزاري فقاتله ومعه عمر وعامة أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم أمضى أبو بكر رضي الله عنه خالدا في قتال من ارتد ومنع الزكاة فقاتلهم بعوام من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - (قال الشافعي) رحمه الله ففي هذا دلالة على أن من منع حقا مما فرض الله عليه فلم يقدر الإمام على أخذه بامتناعه قاتله وإن أتى القتال على نفسه وفي هذا المعنى كل حق لرجل على رجل فمنعه بجماعة وقال لا أوذي ولا أبدؤكم بقتال قوتل وكذا قال من منع الصدقة ممن نسب إلى الردة فإذا لم يختلف أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - في قتالهم بمنع الزكاة فالباغي الذي يقاتل الإمام العادل في مثل معناهم في أنه لا يعطي الإمام العادل حقا يجب عليه ويمتنع من حكمه ويزيد على مانع الصدقة أن يريد أن يحكم هو على الإمام العادل) .

قال الماوردي: قصد الشافعي بهذه الجملة أمرين:

أحدهما: الرد على طائفة نسبت علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - إلى الخطأ في قتال أهل الجمل وصفين، وهم من أهل القبلة، وقالوا: هلا فعل مثل ما فعله عثمان أغلق بابه وكف أصحابه عن القتال، وكالذي فعل ابنه الحسن حين رأى الثائرة قد هاجت والدماء قد طاحت، سلم الأمر تسليم تقرب إلى معاوية.

فرد الشافعي عليهم: بأنه ما ابتدع ذلك، ولا ارتكب فيه محظورا، فقد فعل أبو بكر رضي الله عنه في قتال أهل القبلة من المسلمين مثل ما فعله، وإن اختلف السببان فيه، فإن أهل الردة بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ضربان:

منهم من ارتد عن دينه وكفر بعد إسلامه مثل مسيلمة تنبأ باليمامة فارتد معه من أطاعه من بني حنيفة، ومثل طليحة تنبأ باليمن فارتد معه من أطاعه من أهلها.

ومثل العنسي تنبأ في قومه فارتد معه من أطاعه منهم فجهز الجيوش إليهم، وكان أول جيش سيره إليهم جيش أسامة، وكان مبرزا بظاهر المدينة حين قبض رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فسيرهم أبو بكر رضي الله عنه إلى أبنى من أرض الشام، فعاد ظافرا، ثم سير إلى مسيلمة جيشاً وأمدهم بالجيوش حتى قتل من أهل الردة من قتل، وأسلم منهم من أسلم.

فهذا ضرب منهم انطلق عليهم اسم الردة لغة وشرعا – والضرب الثاني منهم: من كان مقيما على إسلامه ومنع من الزكاة بتأويل ذهب إليه، وشبهة دخلت عليه في قول الله تعالى: {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم} [التوبة: 103] وكان دخول الشبهة عليهم فيها من وجهين: أحدهما: إنه خاطب به رسوله: فلم يتوجه الخطاب إلى غيره.

والثاني: قوله إن صلاتك سكن لهم وليست صلوات ابن أبي قحافة سكن لنا فاشتبه تأويلهم على قوم من الصحابة وصح فساده لأبي بكر فأذعن على قتالهم فأشار عليه جماعة بالكف عنهم منهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: لأن أخر من السماء فتتخطفني الطير أو تهوي بي الريح في مكان سحيق لأهون علي مما سمعت منكم يا أصحاب محمد، والله لافرفت بين ما جمع الله يعني قوله تعالى {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة} [البقرة: 43] والله لو منعوني عناقاً أو عقالاً كانوا مما أعطوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لقاتلتهم عليه، أرأيتم لو سألوا ترك الصلاة أرأيتم لو سألوا ترك الصيام أرأيتم لو سألوا ترك الحج، أرأيتم لو سألوا شرب الخمر، أرأيتم لو سألوا الزنا، فإذا لا تبقى عروة من عرى الإسلام إلا انحلت.

فقال له عمر رضي الله عنه: علام نقاتلهم وقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله" . فوكز أبو بكر في صدر عمر وقال: إليك عني شديدا في الجاهلية خوارا في الإسلام، وهل هذا إلا من حقها؟

قال عمر: فشرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر فحينئذ أجمعوا معه على قتالهم مع بقائهم على إسلامهم، ولم يكن الإسلام مانعا من قتالهم، لأنهم منعوا حقا عليهم.

وكذلك حال علي – عليه السلام – في قتال من قاتل من المسلمين. ولا يكون كف عثمان وتسليم الحسن – رضي الله عنهما – حجة عليه، لأن لكل وقت حكما، ولكل مجتهد رأيا.

ولا يمنع إسلام مانعي الزكاة في عهد أبي بكر من إطلاق اسم الردة عليهم لغة، وإن لم ينطلق عليهم شرعاً، لأنه لسان عربي، والردة في لسان العرب الرجوع، كما قال تعالى: {فارتدا على آثارهما قصصا} [الكهف: 64] أي رجعا، فانطلق اسم الردة على من رجع عن الزكاة كانطلاقه على من رجع عن الدين."

"وقال أبو حنيفة: قد ارتدوا بامتناعهم عنها، لاستحلالهم ما نص الله تعالى على خلافه، كما لو استحلوا الآن منعها. وهذا غير صحيح؛ لأن الصحابة عارضوا أبا بكر – رضي الله عنهم – في الأمر بقتالهم لبقائهم على الإسلام، فوافقهم أبو بكر على إسلامهم، وبين السبب الموجب لقتالهم، ولو ارتدوا لما عارضوه، ولما احتج عليهم بما احتج، فدل على إجماعهم أنهم باقون على إسلامهم.

ولأن القوم حين تابوا وقدموا على أبي بكر قالوا: والله ما كفرنا بعد إيماننا ولكن شححنا على أموالنا.

وقد بان هذا القول منهم في قول شاعرهم:

(أطعنا رسول الله ما كان بيننا ... فيا عجبا ما بال ملك أبي بكر)

فلم يرد عليهم أبو بكر ولا أحد من الصحابة ما قالوه من بقائهم على إيمانهم فدل على ثبوته إجماعا." [الحاوي الكبير للماوردي، الأم للشافعي]

وفي المهذب للشرازي: " إذا خرجت على الإمام طائفة من المسلمين و رامت خلعه بتأويل أو منعت حقا توجب عليها بتأويل، و خرجت عن قبضة الإمام و امتنعت بمنعة قاتلها الإمام لقوله عز و جل و إن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله (الحجرات 9) و لأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قاتل مانعي الزكاة، و قاتل علي كرم الله وجهه أهل البصرة يوم الجمل، و قاتل معاوية بصفين، و قاتل الخوارج بالنهروان و لا يبدأ القتال حتى يسألهم ما ينقمون منه فإن ذكروا مظلمة أزالها، و إن ذكروا علة يمكن إزاحتها أزاحها، و إن ذكروا شبهة كشفها لقوله تعالى فأصلحوا بينهما (الحجرات 9) و فيما ذكرناه إصلاح".

***

المحدثين:

قال ابن حجر في فتح الباري:

"قال الخطابي زعم الروافض أن حديث الباب متناقض لأن في أوله أنهم كفروا وفي آخره أنهم ثبتوا على الإسلام إلا أنهم منعوا الزكاة فإن كانوا مسلمين فكيف استحل قتالهم وسبي ذراريهم وإن كانوا كفارا فكيف احتج على عمر بالتفرقة بين الصلاة والزكاة فإن في جوابه إشارة إلى أنهم كانوا مقرين بالصلاة قال والجواب عن ذلك أن الذين نسبوا إلى الردة كانوا صنفين صنف رجعوا إلى عبادة الأوثان وصنف منعوا الزكاة وتأولوا قوله تعالى خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم فزعموا أن دفع الزكاة خاص به صلى الله عليه وسلم لأن غيره لا يطهرهم ولا يصلي عليهم فكيف تكون صلاته سكنا لهم وإنما أراد عمر بقوله تقاتل الناس الصنف الثاني لأنه لا يتردد في جواز قتل الصنف الأول كما أنه لا يتردد في قتال غيرهم من عباد الأوثان والنيران واليهود والنصارى... ولذلك اتفق الصحابة على قتال من جحد الزكاة قوله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة يجوز تشديد فرق وتخفيفه والمراد بالفرق من أقر بالصلاة وأنكر الزكاة جاحدا أو مانعا مع الاعتراف وإنما أطلق في أول القصة الكفر ليشمل الصنفين فهو في حق من جحد حقيقة وفي حق الآخرين مجاز تغليبا وإنما قاتلهم الصديق ولم يعذرهم بالجهل لأنهم نصبوا القتال فجهز إليهم من دعاهم إلى الرجوع فلما أصروا قاتلهم"

"قال بن الصباغ في الكلام على مانعي الزكاة وإنما قاتلهم أبو بكر على منع الزكاة ولم يقل إنهم كفروا بذلك وإنما لم يكفروا لأن الإجماع لم يكن استقر قال ونحن الآن نكفر من جحدها" [فتح الباري شرح صحيح البخاري]

ويقول أيضاً: "قتال أبو بكر الصديق من منع الزكاة والذين تمسكوا بأصل الإسلام ومنعوا الزكاة بالشبهة التي ذكروها لم يحكم عليهم بالكفر قبل إقامة الحجة. وقد اختلف الصحابة فيهم بعد الغلبة عليهم هل تغنم أموالهم وتسبى ذراريهم كالكفار أو لا كالبغاة فرأى أبو بكر الأول وعمل به وناظره عمر" وهذا دليل آخر على أنه لم يحكم عليهم بالكفر، أما مسألة بعد الغلبة في الغنيمة والسبي فالوارد إلينا – كما ذكرنا أعلاه – من سيرة أبي بكر أنه رد أموالهم، وسبيهم، بل ودفع دية مالك بن نويرة الذي قُتل خطئاً.

وهي مسألة اجتهادية: "وقال القاضي عياض يستفاد من هذه القصة أن الحاكم إذا أداه اجتهاده في أمر لا نص فيه إلى شيء تجب طاعته فيه ولو اعتقد بعض المجتهدين خلافه فإن صار ذلك المجتهد المعتقد خلافه حاكما وجب عليه العمل بما أداه إليه اجتهاده وتسوغ له مخالفة الذي قبله في ذلك لأن عمر أطاع أبا بكر فيما رأى من حق مانعي الزكاة مع اعتقاده خلافه ثم عمل في خلافته بما أداه إليه اجتهاده ووافقه أهل عصره من الصحابة وغيرهم" [فتح الباري لابن حجر]

وفي فتح الباري أيضاً: "قال المهلب من امتنع من قبول الفرائض نظر فإن أقر بوجوب الزكاة مثلا أخذت منه قهرا ولا يقتل فإن أضاف إلى امتناعه نصب القتال قوتل إلى أن يرجع قال مالك في الموطأ الأمر عندنا فيمن منع فريضة من فرائض الله تعالى فلم يستطع المسلمون أخذها منه كان حقا عليهم جهاده قال بن بطال مراده إذا أقر بوجوبها لا خلاف في ذلك قوله وما نسبوا إلى الردة أي أطلق عليهم اسم المرتدين قال الكرماني ما في قوله وما نسبوا نافية كذا قال والذي يظهر لي أنها مصدرية أي ونسبتهم إلى الردة وأشار بذلك إلى ما ورد في بعض طرق الحديث الذي أورده كما سأبينه قال القاضي عياض وغيره كان أهل الردة ثلاثة أصناف صنف عادوا إلى عبادة الأوثان وصنف تبعوا مسيلمة والأسود العنسي وكان كل منهما ادعى النبوة قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم فصدق مسيلمة أهل اليمامة وجماعة غيرهم وصدق الأسود أهل صنعاء وجماعة غيرهم فقتل الأسود قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم بقليل وبقي بعض من آمن به فقاتلهم عمال النبي صلى الله عليه وسلم في خلافة أبي بكر وأما مسيلمة فجهز إليه أبو بكر الجيش وعليهم خالد بن الوليد فقتلوه وصنف ثالث استمروا على الإسلام لكنهم جحدوا الزكاة وتأولوا بأنها خاصة بزمن النبي صلى الله عليه وسلم وهم الذين ناظر عمر أبا بكر في قتالهم كما وقع في حديث الباب وقال أبو محمد بن حزم في الملل والنحل انقسمت العرب بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم على أربعة أقسام طائفة بقيت على ما كانت عليه في حياته وهم الجمهور وطائفة بقيت على الإسلام أيضا إلا أنهم قالوا نقيم الشرائع إلا الزكاة وهم كثير لكنهم قليل بالنسبة إلى الطائفة الأولى والثالثة أعلنت بالكفر والردة كأصحاب طليحة وسجاح وهم قليل بالنسبة لمن قبلهم إلا أنه كان في كل قبيلة من يقاوم من ارتد وطائفة توقفت فلم تطع أحدا من الطوائف الثلاثة وتربصوا لمن تكون الغلبة فأخرج أبو بكر إليهم البعوث وكان فيروز ومن معه غلبوا على بلاد الأسود وقتلوه وقتل مسيلمة باليمامة وعاد طليحة إلى الإسلام وكذا سجاح ورجع غالب من كان ارتد إلى الإسلام فلم يحل الحول إلا والجميع قد راجعوا دين الإسلام ولله الحمد"

***

وبالعموم فإذا كان هناك إجماع عام على قتال الفئة الباغية التي تخرج على السلطان الشرعي للدولة الإسلامية، وخرجوا على طاعة "الإمام العادل" واجتمعوا على ذلك، وناصبوا للمسلمين القتال.. أنها تقاتل قتال أهل البغي، فإن من المقطوع به أن هذه الفئة الخارجة على طاعة الإمام العادل سوف تمنع الزكاة من باب أولى، وعليه فإن مجرد منع الزكاة لتأويل أو لخروج على حاكم لا يعني كفر هذه الفئة الباغية..

"وإذا تغلب قوم من المسلمين على بلد وخرجوا عن طاعة الإمام دعاهم إلى العود إلى جماعتهم وكشف عن شبهتهم) يعني يسألهم عن سبب خروجهم إن كان لأجل ظلم أزاله عنهم وإن لم يكن خروجهم لذلك ولكنهم قالوا الحق معنا

وادعوا الولاية فهم بغاة وللسلطان أن يقاتلهم إذا كانت لهم شوكة وقوة ويجب على الناس أن يعينوا السلطان ويقاتلوهم معه لقوله تعالى {فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله} [الحجرات: 9] أي حتى ترجع عن البغي إلى كتاب الله والصلح الذي أمر الله به... وإن لم يكن له فئة لم يجهز على جريحهم ولم يتبع موليهم) لاندفاع شرهم بدون ذلك قوله (ولا تسبى لهم ذرية ولا يقسم لهم مال) لقول علي – رضي الله عنه – يوم الجمل لا يقتل أسيرهم ولا يكشف لهم ستر ولا يؤخذ مال وهو القدوة في هذا الباب" [الجوهرة لأبي بكر الحنفي]

وإذا كان إجماع المسلمين على أن قاتل النفس المعصومة ليس بكافر ولا مرتد – إلا إذا استحل ذلك، وجحد الكتاب والسنة الجامعة – فمن باب أولى من منع الزكاة ولم يخرج من ملة الإسلام.

***

الأقوال المخالفة:

(1) المذهب الحنفي:

جاء في اللباب لجمال الدين المنبجي الحنفي: "كانت الصحابة رضي الله عنهم سبت ذراري مانعي الزكاة، وقتلت مقاتلتهم، وسموهم أهل الردة، لأنهم امتنعوا من التزام الزكاة وقبول وجوبها فكانوا مرتدين، لأن من كفر بآية من القرآن كفر به كله، وعلى ذلك أجرى حكمهم أبو بكر الصديق مع سائر الصحابة رضي الله عنهم حين قاتلوا. يدل على ذلك ما روى معمر عن أنس رضي الله عنه قال: " لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب كافة ".

وروى ابن المبارك عن فضالة، عن الحسن قال: " لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب عن الإسلام إلا أهل المدينة". وأخبروا أن ردتهم من جهة امتناعهم من أداء الزكاة، وذلك عندنا على أنهم امتنعوا من أداء الزكاة على جهة الرد لها وترك قبولها، فسموا مرتدين من أجل ذلك"

ولم نجد شواهد قوية للمذهب الحنفي في هذا الأمر، ولا أدلة دقيقة تؤيد مذهبهم في ذلك! بل ولا حتى كبير اهتمام في تحقيق مسألة مانعي الزكاة، ولكن ما جاء في اللباب جعل علة الردة: الرد لها وترك قبولها أي: جحودها وإن جحودها كما قال العلاّمة جمال الدين ردة، ولكن الحديث على من "تأول" منعها، ولم يجحد فريضتها ولم يرتد.

والمفارقة أن المذهب الحنفي يؤكد بشكل قاطع أن الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم بالتأويل – وبالتبع يمنعون الزكاة فهم ينظرون إلى الحاكم على أنه مرتد مشرك ! – على أنهم "مسلمون بغاة".. ألا يكون من يمنع الزكاة بتأويل أولى منهم بهذا الوصف؟!

جاء في البحر الرائق: "الخوارج قوم لهم منعة وحمية خرجوا عليه بتأويل يرون أنه على باطل كفر أو معصية توجب قتاله بتأويلهم يستحلون دماء المسلمين وأموالهم ويسبون نساءهم ويكفرون أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وحكمهم عند جمهور الفقهاء والمحدثين حكم البغاة وذهب بعض المحدثين إلى كفرهم قال ابن المنذر لا أعلم أحداً وافق أهل الحديث على تكفيرهم وهذا يقتضي نقل إجماع الفقهاء وذكر في المحيط أن بعض الفقهاء لا يكفر أحداً من أهل البدع وبعضهم يكفرون بعض أهل البدع وهو من خالف ببدعته دليلاً قطعياً. ونسبه إلى أكثر أهل السنة والنقل الأول أثبت نعم يقع في كلام أهل المذاهب تكفير كثير لكن ليس من كلام الفقهاء الذين هم المجتهدون بل من غيرهم ولا عبرة بغير الفقهاء والمنقول عن المجتهدين ما ذكرنا وابن المنذر أعرف بنقل مذاهب المجتهدين" [البحر الرائق لابن نجيم المصري]

"والخوارج وهم قوم لهم منعة خرجوا عليه بتأويل يرون أنه على باطل كفر أو معصية توجب قتاله بتأويلهم، ويستحلون دماءنا وأموالنا ويسبون نساءنا، ويكفرون أصحاب نبينا – صلى الله عليه وسلم –، وحكمهم حكم البغاة بإجماع الفقهاء كما حققه في الفتح وإنما لم نكفرهم لكونه عن تأويل وإن كان باطلا" [الدر المختار ابن عابدين]

والذي بلغ الغاية، وأجاد في الحُجة والتمحيص والاستدلال والتحقيق في هذا الأمر هو الإمام الشافعي رحمه الله .

***

(2) **قال أبو عبيد القاسم في كتابه (كتاب الإيمان)** : "جهاد أبي بكر الصديق – رحمة الله عليه– بالمهاجرين والأنصار على منع العرب الزكاة، كجهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الشرك سواء، لا فرق بينها في سفك الدماء، وسبي الذرية، واغتنام المال، فإنما كانوا مانعين لها غير جاحدين بها."

وهذا القول غير صحيح – والكتاب في الأصل يتحدث عن موضوع الإيمان وتعريفه وليس للتحقيق الفقهي – فكما سبق البيان أن هناك فرق بين المانع للزكاة عن أنفة وعصبية أو عن عدم الاعتراف بولاية أبي بكر، وبين من كفر بدين محمد ﷺ، ومنع الزكاة، وادعى النبوة، وأرد غزو المدينة ! وإن اشتركوا في صفة واحدة هي "منع الزكاة".

ودليل ذلك هو سيرة أبو بكر نفسه في قتال المرتدين فالسبي والغنيمة كان في حق المرتدين، أما مانعي الزكاة الذين شاهدوا بالإسلام والصلاة – كما في حادثة مالك بن نويرة وأمثالها – فهؤلاء ليسوا بمرتدين، وحكمهم حكم البغاة.

ونلحظ أن الذي لم يتمحص التاريخ بدقة في هذه الفترة يخلط بين المرتدين ومانعي الزكاة. ونلفت النظر إلى أن العلاّمة أبو عبيد القاسم يميل في الفقه إلى مذهب مالك والشافعي، ومذهبهما – كما سبق البيان – أنهم بغاة.

والمفارقة في كتاب الإيمان لأبي عبيد قوله: "وأما الآثار المرويات بذكر الكفر والشرك ووجوبهما بالمعاصي، فإن معناها عندنا ليست تثبت على أهلها كفراً ولا شركاً يزيلان الإيمان عن صاحبه، إنما وجوهها: أنها من الأخلاق والسنن التي عليها الكفار والمشركون... وكذلك كل ما كان فيه ذكر كفر أو شرك لأهل القبلة فهو عندنا على هذا [مثل { ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون } "آية المنافق ثلاث" "ثلاثة من سنن الجاهلية"]، ولا يجب اسم الكفر والشرك الذي تزول به أحكام الإسلام ويلحق صاحبه بردة إلا بكلمة الكفر خاصة دون غيرها وبذلك جاءت الآثار مفسرة." "وقال أبو عبيد [صاحب المصنف]: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان قال: جاورت مع جابر بن عبد الله بمكة ستة أشهر، فسأله رجل: هل كنتم تسمون أحداً من أهل القبلة كافرا؟ فقال: معاذ الله! قال: فهل تسمونه مشركا؟ قال: لا" [إسناده صحيح على شرط مسلم.]"ا.هـ. وهذا قول صحيح بإذن الله.

***

(3) **في كتاب الشفا للقاضي عياض**: "واحتج إبراهيم بن حسين بن خالد الفقيه في مثل هذا بقتل خالد بن الوليد مالك بن نويرة بقوله عن النبي ﷺ صاحبكم" وهذا الكلام لا أصل له، وكما سبق البيان إن مالكاً قُتل خطئاً، وحزن لموته عمر ابن الخطاب – رضي الله عنه – ولم نجد أي رواية صحيحة أو ضعيفة تقول أنه قُتل لأنه سب النبي ﷺ ! كما أن القرآن الكريم سَمى محمد ﷺ صاحبكم فقال تعالى: ﴿ **وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ** ﴾ [التكوير : 22] وهو ﷺ كان يقول عن نفسه صاحبكم: "وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ، فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ، رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا صَاحِبُكُمْ يَعْنِي نَفْسَهُ" [صحيح مسلم/ 169] فلا محل للاستدلال بالأقوال المرسلة في هذه القضية الخطيرة.

***

وبذلك نجد إجماع المذاهب الفقهية – باستثناء ما ذكرناه عن المذهب الحنفي – على أن مانعي الزكاة مسلمون بغاة، وبذلك يبطل قول ابن تيمية – غفر الله له – فيما قاله: "السلف سموا مانعي الزكاة مرتدين مع كونهم يصومون ويصلون، ولم يكونوا يقاتلون جماعة المسلمين"[1]، ويبطل قوله أن ذلك مذهب الإمام مالك والإمام أحمد، وإن كُنا نرى فتواه صحيحة من حيث سياقها – لا من حيث أدلتها – فالفتوى كانت ضد التتار الغزاة المعتدين على أهل الشام، وقد فعلوا كل قبيح وارتكبوا كل جريمة، وكان لا بد من قتالهم، وقد انتصر عليها المماليك – بفضل الله – في النهاية.

[1] [مجموع الفتاوى ج3، ص548]

بقي أن نشير إلى أن العلاّمة ابن تيمية قطع بكفر الخوارج مع مانعي الزكاة، والخوارج بالإجماع هم مسلمون بغاة ولم يخالف في ذلك إلا قلة من أهل الحديث استدلالاً بقوله ﷺ "يمرقون من الدين" وهذا القول جعله المالكية دليلاً على عدم كفرهم، فاعتبروا هذا القول على المعنى الحقيقي لخروجهم من مقاصد وغايات هذا الدين مع بقاء وصف الإسلام الظاهر لهم، والعمدة لجميع المذاهب الفقهية في ذلك هو سيرة علي بن أبي طالب[1] – كرّم الله وجهه – فالإمام عليّ لم يُكفر الخوارج، وهذا مقطوع به،[2] وهو كذلك العمدة في فقه قتال البغاة..

والغريب أن العلاّمة ابن تيمية جعل قتال الإمام عليّ في صفين "قتال فتنة" وهو قول غريب يناقض تماماً الحديث المتواتر "عمار تقتله الفئة الباغية"[3] فقتال صفين بنص الحديث المتواتر "قتال أهل البغي".

والصحيح هو ما ذهب إليه الإمام الشافعي في كتابه الأم – والمالكية والحنابلة –: أن مانعي الزكاة، وأهل الجمل وصفين والنهروان كلهم مسلمون بغاة.. تجري عليهم أحكام أهل البغي.

***

[1] والإمام الشافعي يجعل كذلك سيرة أبي بكر الصديق أسبق، وأن الإمام عليّ سار على نهجه، وقطع الشافعي بأن قتال مانعي الزكاة المتأولين كان قتال أهل البغي، كما جاء في الحاوي الكبير للماوردي.

[2] وقال لهم الإمام علي: " قِفُوا حَيْثُ شِئْتُمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا تَسْفِكُوا دَمًا حَرَامًا أَوْ تَقْطَعُوا سَبِيلًا أَوْ تَظْلِمُوا ذِمَّةً، فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ فَقَدْ نَبَذْنَا إِلَيْكُمُ الْحَرْبَ عَلَى سَوَاءٍ { إِنَّ اللهَّ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ}. [إتحاف الخيرة المهرة، للبوصيري]" وحفظ لهم حقوقهم: "وروي عن علي كرم الله وجهه أنه كان قائما على المنبر بالكوفة يخطب فقال الخوارج من ناحية المسجد: لا حكم إلا لله، فقطع خطبته وقال: " كلمة حق يراد بها باطل، أما إن لهم عندنا ثلاثا أن لا نمنعهم حقهم من الفيء ما كانت أيديهم مع أيدينا، ولا نمنعهم مساجد الله أن يذكروا فيها اسمه، ولا نقاتلهم حتى يقاتلونا ".[أحكام القرآن للجصاص]

[3] عسى أن نعود بالتفصيل والتحليل – إن شاء الله – لهذا الحديث في كتاب: "أمراض الاستبداد" يسر الله إتمامه.

والخلاصة في هذا الباب:

- **لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب (صغير أو كبير) ما لم يستحله.**
- **لا نُقاتل أحداً من أهل القبلة قبل دعوته بالحسنى، وبالوسائل السلمية.**
- **لا نُقاتل أحداً من أهل القبلة إلا كقتال البغاة، عند وقع البغي والعدوان.**
- **لا نرمي أحداً من أهل القبلة بالكفر والردة – ولو كان على بدعة – بسبب تأويل [ولو باطل] أو جهل أو ارتكاب كبيرة.**
- **من يجحد ويستحل حرمات الله، ويُكذب الكتاب والسنة الجامعة أو يهين كتاب الله عامداً، أو يسب الله ورسوله ﷺ عامداً (وغيره مما أجمعت الأمة على كفر فاعله) أو ينكر معلوماً من الدين بالضرورة غير جاهل به؛ فهو كافر.**
- **نفرق بين حالات النفاق والبدع الكفرية وغير الكفرية وأفعال الكفر، وبين الانتساب لملة الإسلام، فكل منتسب لدين الإسلام – وإن كان على نفاق وبدع – نحكم له بظاهر الإسلام.**
- **شيوع الكفر البواح (أو المعاصي البواح) يجعلنا ننازع الأمر أهله حتى يعود إلى الرشد، ولكن لا يجعلنا نحكم بالكفر والردة على الأنظمة والحكومات إلا عند الاستحلال، واستعلان معاندة الله ورسوله ﷺ.**

***

المرجئة، والخوارج

" **المرجئة**: "الذين يعتقدون أن الطاعة والعبادة ليست من الإيمان، ولا يضر تركها حقيقة الإيمان، والإيمان تصديق لذا فهو لا يزيد ولا ينقص، والكفر هو الجحود والإنكار. والسجود للشمس والقمر والصنم ليس بكفر في نفسه، ولكنه علامة الكفر. كما قال ابن الراوندي وبشير المريسي" [الملل والنحل للشهرستاني]

"والإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط والكفر هو الجهل به فقط وأن قول القائل ان الله تعالى ثالث ثلاثة ليس بكفر لكنه لا يظهر إلا من كافر... وأن الصلاة والزكاة والصيام والحج طاعات وليست بعبادة لله تعالى وأن لا عبادة له الا الايمان به وهو معرفته والايمان عنده خصلة واحدة لا تزيد ولا تنقص وكذلك الكفر خصلة واحدة" [الملل والنحل للشهرستاني]

و"غلاة المرجئية طائفتان أحدهما الطائفة القائلة بأن الإيمان قول باللسان وإن اعتقد الكفر بقلبه فهو مؤمن عند الله عز وجل ولي له عز وجل من أهل الجنة وهذا قول محمد بن كرام السجستاني وأصحابه وهو بخراسان وبيت المقدس والثانية الطائفة القائلة أن الإيمان عقد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه بلا تقية وعبد الأوثان أو لزم اليهودية أو النصرانية في دار الإسلام وعبد الصليب وأعلن التثليث في دار الإسلام ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل ولي لله عز وجل من أهل الجنة وهذا قول أبي محرز جهم بن صفوان" [الفصل في الملل والنحل، لابن حزم][1]

الخوارج: على العكس من المرجئة فهم يقولون: بكفر مرتكب الكبيرة، ويكفرون من دونهم، ويعتبرون أصحاب الذنوب مشركون، ويتبرؤون من كل غيرهم، ويحكمون على ديار غيرهم بأنها ديار كفر وردة.[2] إضافة إلى معتقدات أخرى لم نذكرها لأن موضوع الحديث حول "العمل والكبائر".

في حالة المرجئة: جعلوا الإيمان – على الاصطلاح اللغوي – مجرد التصديق، والكفر – مقابله – هو الجهل، ومن ثم فهو لا يزيد ولا ينقص، ولا يتبعض. فمن صدّق – سواء بالقلب أو اللسان أو بهما معاً – فهو مؤمن، ومن كذّب وجحد فهو

[1] ولعل قد انفرد العلامة ابن حزم بهذه الرواية فلم أجد غيره قالها، فإن صحت – ولا أظنها تصح – فهي من شطحات الأهواء والأقوال السخيفة عندما يستحكم التعصب والغلو، ولعلنا نجد أمثالها من الشطحات عند كل فرقة، وجماعة من جماعات المسلمين !، وأحسب أن قول الشهرستاني هو الأصح والأضبط. وكذلك نقل أبو الحسن الأشعري في كتابه مقالات الإسلاميين وقد فنّد أقوالهم واختلاف جماعتهم.

[2] سنعود للحديث – إن شاء الله – عن السلوك النفسي للخوارج.

الكافر. ومن ثَم فالعمل سواء الطاعات لا يُغير في حقيقة الإيمان شيء إنما هو شيء زائد عليه. وكذلك الكفر – كالسجود لصنم – لم يجعلوه كفراً لأنهم حصروا معنى الكفر بالتكذيب، بل جعلوه دليلاً على الكفر !.

ونجد من ذلك: أنها مجرد تحكمات وتخرصات لا معنى لها، ومحاولة فلسفة قضية الإيمان.. وخطورة سلوك المرجئة – خاصة عند العامة – هو التهاون في أمر العبادات، والتساهل في إتيان المعاصي بإخراج قضية "العمل" من الإيمان. وربما لا يكون لفكر المرجئة خطورة عند الخاصة (من الفقهاء والعلماء).. إذ سيصبح الأمر مجرد اصطلاحات لغوية طالما أن المؤمن في النهاية سيقوم بالعمل الصالح، ويتجنب العمل السيء؛ فعندها تتحقق مقاصد الدين بالإيمان والعمل الصالح، وهذا ربما ما ألمح إليه الإمام أبو حنيفة في تعريفه للإيمان.

والذي نقول به: إن الإيمان كائن حي في قلب المسلم الذي يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيم أركان الإسلام محبة لله، وطاعة، وعبادة، واستسلاماً وانقياداً، وإن هذا الكائن الروحاني يزيد ويتلألأ بقربه إلى الله، ويتنور بنور الله وطاعته كلما أخلص لله وأقبل عليه، ويُظلم كلما بعد عن الله، وانطفأ بالمعاصي.. كما جاء في الحديث الشريف: "عَنْ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ يَقُولُ: " **تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ** "... قَالَ أَبُو خَالِدٍ: فَقُلْتُ لِسَعْدٍ: يَا أَبَا مَالِكٍ، مَا أَسْوَدُ مُرْبَادًّا؟ قَالَ: شِدَّةُ الْبَيَاضِ فِي سَوَادٍ، قَالَ: قُلْتُ: فَمَا الْكُوزُ مُجَخِّيًا؟ قَالَ: مَنْكُوسًا." [صحيح مسلم/ 147] وكما قال تعالى: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [الأنعام : 122] ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّـهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّـهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [المائدة: 15، 16] ﴿ **أَفَمَن شَرَحَ اللهُّ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهَّ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** ﴾ [الزمر : 22] ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الحديد : 28] فالمؤمنون: ﴿**الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُّ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [الأنفال : 2] ﴿**أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾ [الأنفال : 4] [1]

---

[1] راجع – إن شئت – مقال: العقيدة الإسلامية، الإيمان.. وجفاف القلوب.

وإن خطة القرآن الكريم في تربية النفس المسلمة ليست هي الدعوة – أو التهاون – في ارتكاب الكبائر أو الصغائر – والعياذ بالله – اتكالاً على رحمة الله، بل هي الخوف والوجل ونحن نأتي الطاعة، فتكون للقلوب حساسية مرهفة وهي تتعامل مع الله وهي تأتي الطاعة.. أكانت على الوجه الذي يحب ويرضى؟ أكانت خالصة لوجهه الكريم؟ كما قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ**﴾ [المؤمنون : 60]

ثم على الجانب الآخر يمد الله الرحيم يده للعصاة[1] والذين أسرفوا على أنفسهم، فلا يتركهم نهباً للشيطان ليخرجهم من رحمة الله، وعفو الله، وكرم الله.. بل رحمته وسعت كل شيء، وعفوه يشمل الذنوب جميعاً: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [الزمر : 53]

فالقرآن على هذا النحو يحقق التوازن النفسي للشخصية المسلمة.. فلا يجعلها تغتر بالعمل الصالح، ولا يجعلها تيأس من رحمة الله.. بل يضعها على خط التوازن، يأخذها للأمام بمزيد من القرب والطاعة والعمل الصالح، ويدفعها من الخلف بعدم اليأس من رحمة الله، ويجذبها جهة اليمين نحو نعيم الجنة، ويلوح بوجهها جهة الشمال تحذيراً لها من عذاب النار، فبهذا تتحقق الشخصية الربانية، التقية، النقية، التي تعمل الصالحات، وتسارع في الخيرات.

وخطورة فكر الإرجاء في أمر خفي خطير وهو: تربية الأجيال على أن الخطورة محصورة فقط عند وقوع الكفر الأكبر المخرج من الملة، وما دونه من الكفر والكبائر فلا بأس به، وهو محل الغفران ! فحصل التهاون في ارتكاب الكبائر، واقتراف الظلم، والمحرمات، بل وشرعنة الباطل والفساد، وفساد السلوك والأخلاق. بل حتى عند وقوع الكفر الأكبر لا ينهضون لمنازعة أصحابه خوف الفتنة بزعمهم.. ألا في الفتنة سقطوا !.

***

[1] "عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " **إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا** " [صحيح مسلم/ 2760]

وأما الخوارج: فهم الغلاة الذين يُكفرون المسلمين إن ارتكبوا الكبائر، ويخرجونهم من ملة الإسلام، ويجرون عليهم أحكام الكفر والردة، ويستحلون دمائهم وأموالهم ونساءهم ! ويعتبرون كل من فعل كبيرة من الكبائر فهو مشرك أو كافر، ويتبرؤون من المسلمين، ويزعمون أنهم مشركين، ولا يقبلون مسلماً إلا بعد أن يشهد على نفسه بالكفر، ويدخل في الإسلام من جديد كما حصل مع الإمام عليّ كرّم الله وجهه.

فنجد عند المرجئة غلو في التهاون، ونجد عن الخوارج غلو في التشدد، وهما يمثلان انحرافاً نفسياً.. يجذب أصحاب النفوس المتشابهة إلى حيث كل فريق.

***

والذي نقول به في أمر الكبائر:

إننا نفرق بين عدة أمور:

- **الصورة الإيمانية والتربوية التي يريدها القرآن الكريم، ويربي عليها الشخصية المسلمة.**

- **عدم التهاون في ارتكاب الصغائر والكبائر أو التشجيع عليها، أو إيجاد المبرر أو الشرعية الباطلة لها.**

- **الحكم على مرتكب الكبائر (سواء أكانت كفرية[1] ، أو غير كفرية[2]) على أنهم منتسبون للإسلام اسماً – لا حقيقة[3] – تجري عليهم أحكام الإسلام، وننفي عنهم الحقيقة لأن حقيقة الإسلام هو الطاعة والعبادة والحب والانقياد والاستسلام لله – سبحانه وتعالى – فبقدر حقيقة التزامه منها يكون إسلامه وإيمانه. فنفرق بين الاسم (وهو الانتساب للإسلام) وبين الحقيقة وهي (مقاصد الدين وغايته)، من يحققها فهو المسلم، ومن يتركها فهو على الحقيقة ليس كذلك.[4]**

---

[1] كالتي فيها نص مثل: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ، ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾.

[2] كالتالي فيها وعيد مثل: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا ﴾، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ أو أمور الجاهلية.

[3] هناك من لا يُفرق بين الحقيقة والاسم كـ "جماعة المسلمين" المعروفة إعلامياً بجماعة "التكفير والهجرة" حيث تعتبر الظالم والفاسق والباغي كلهم كفاراً، ولهم رسالة في ذلك اسمها "الاسماء والأحكام – الأسماء والشروط".

[4] فهناك من يخرج عن الإسلام حقيقة لا اسماً كالمنافقين والفاسقين.. ويظل ينتسب للإسلام، وبين من يخرج عن الإسلام اسماً وحقيقة كاليهود والنصارى.

- **لا تجري أحكام الكفر والردة على مرتكب الكبائر إلا عند الجحود والإنكار سواء الجحود والإنكار للإيمان أو للعمل، كاستحلال المحرمات – بلا تأويل[1] – والاستخفاف بها، وإنكار المعلوم من الدين بالضرورة بعد رفع الجهل وإزالة الشبهة.[2]**

- **الأحكام في الدار الآخرة لله وحده لا شريك له، لا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، وكلنا منها وجل وخشية، وحذر، فلا نتألى على الله في حكمه، ولا نقدم بين يديه، ولا نقترح عليه شيئاً ! ونتأدب مع الله جل جلاله في شأن الجنة والنار – وفي كل شأن – ونعلم بالعموم – كما أخبرنا الله – أن أهل الإيمان في الجنان، وأهل الكفر في النيران.. وأن الله يحاسب على مثقال الذر من الخير والشر، وأن العصاة حكمهم إلى الله في الدار الآخرة إن شاء عذبهم، وإن شاء عفى عنهم، فهو وحده الذي يُحصل ما في الصدور، وهو وحده الذي يضع موازين القسط؛ ولا تُظلم نفس شيئا. ورغم وضوح وبساطة هذا التصور، وهو من المعلوم من الدين بالضرورة، إلا إننا نجد الكثير من الناس يُقحم نفسه في أمور الآخرة ليحكم على هذا وذاك، ويجزم بأشياء كأنه شريك لله في حكمه والعياذ بالله!!**

- **نحكم على مرتكب الكبائر – سواء أكانت كفرية أو غير كفرية – في الدنيا بأنهم فساق، مجرمون، أو منافقون[3] ولا شرعية لحكمهم، ولا لأنظمتهم، وإن تحزبوا في فئة وقَاتَلوا على كبائرهم، فيُقاتلون كمانعي الزكاة.. قتال أهل البغي.**

هذا – والله أعلم – ما نراه من خط الاعتدال، والطريق المستقيم، الذي لا يجنح إلى التهاون في الطاعة والعبادة، ولا ينزلق إلى التشدد والتكفير.

ولمزيد من البيان نستدل على ذلك الاعتقاد بجملة من الاستدلالات:

أولاً: من القرآن الكريم:

---

[1] كتأويل الخوارج استحلال قتل المسلمين على أنهم أهل ردة.

[2] فنُفرق بين من يرتكب الكبائر جاحداً بها وراداً لها ومستخفاً بها فهو كافر، وبين من يرتكبها عن إجرام أو تكاسل أو جهل أو تأويل، فهذا يُحكم عليه حسب حاله بالبدع أو الفسق أو النفاق.. إلخ ولكن يظل ينتسب إلى الإسلام، وتجري عليه أحكام المسلمين.

[3] ولا يلغي ذلك أحكام انتسابهم للإسلام.

(1) تناول القرآن الكريم لقضية أهل الكتاب.

لقد فصّل القرآن الكريم تفصيلاً طويلاً في أحوال أهل الكتاب وعقائدهم، وبيّن تاريخ انحرافهم عن أنبيائهم، وبيّن كيف أنهم أشركوا بالله في اعتقاد التثليث، وكيف زعموا – كما زعم من قبلهم – أن لله سبحانه وتعالى ولد ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ** ﴾ [التوبة : 30] وكيف أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وكيف أنهم آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض... إلخ من الآيات الطويلة التي كان أحد أهدافها – وربما أهمها – هو تحذير الأمة المسلمة أن تسلك مسلك أهل الكتاب تجاه دينهم.

ولكن القرآن الكريم بعد هذا الشرح والبيان، كان يخاطبهم بالأصل الذي هم عليه "أهل الكتاب" وأبقى لهم الانتساب (اسماً) لهذا الكتاب، ولكن بيّن (حقيقة) هذا الإيمان، وما طرأ عليه من كفر وشرك. وأجرى الأحكام في النهاية على (الاسم) لا الحقيقة، فأحل طعام الذين أتوا الكتاب، وأحل الزواج منهم: ﴿ **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [المائدة : 5]

وإلى مثل هذا أشار العلامّة أبو عبيدة القاسم في كتابه (الإيمان) فقال: "قال تعالى في أهل الكتاب {وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم} [آل عمران:187]. قال أبو عبيد: حدثنا الأشجعي، عن مالك بن مغول، عن الشعبي – في هذه الآية– قال: أما إنه كان بين أيديهم، ولكن نبذوا العمل به. ثم أحل الله لنا ذبائحهم ونكاح نسائهم فحكم لهم بحكم الكتاب إذا كانوا به مقرين، وله منتحلين، فهم بالأحكام والأسماء في الكتاب داخلون، وهم لها بالحقائق مفارقون."

(2) المنافقون:

بيّن القرآن الكريم في آيات كثيرة أحوال المنافقين، وكان يكشف أحوال نفوسهم الخبيثة، وبواعثهم الخسيسة، وجعل مصيرهم في الآخرة { في الدرك الأسفل من النار } وأشد الناس عذاباً، وقرنهم في كل مناسبة مع الكافرين لوجود التشابه النفسي بين الفريقين، فهذه هي (حقيقتهم)، أما من حيث الظاهر فأبقى لهم على (اسم) الإسلام، وتجري عليهم أحكام المسلمين.

وقد كان القرآن الكريم يُفرق بين درجات النفاق، وبين الذين في قلوبهم مرض، وبين المنافق الخالص، وبين الذين يترددون في النفاق كما قال عن المتخلفين عن القتال: ﴿ **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ** ﴾ [آل عمران : 167] " أي أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان يوم قالوا ذلك القول لظهور صفته فيهم وانطباق آيته عليهم... وإنهم أقرب إلى الكفر ولم يقل إنهم كفار من علمه بحالهم تأديبا لهم ومنعا للتهجم على التكفير بالعلامات والقرائن . أقول : يعني إن هذا الذي صدر منهم وإن كان من شأنه ألا يصدر إلا من الكافرين لا يعد – بحد ذاته – كفراً صريحاً في حكم الظاهر ، لاحتمال العذر والتأويل، ولو سجل عليهم به ظاهرا لوجب أن يعاملوا معاملة الكفار مع أنه – صلى الله عليه وسلم – كان يعاملهم بعد ذلك معاملة المؤمنين حتى إنه صلى على جنازة رئيسهم عبد الله بن أبي بعد بضع سنين من وقعة أحد ، وحينئذ فضحهم الله – تعالى – في سورة التوبة بعد ما كان من ظهور كفرهم ونفاقهم في غزوة تبوك وأنزل عليه : ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله ﴾ فالمعنى أنه – تعالى – كان يعلم أنهم يبطنون الكفر ، وأن امتناعهم عن الجهاد عمل من أعمال الكفر ، ولكنه لم يصرح به في الآية بل صرح بما يومئ إليه تأديبا لهم عسى أن يتوب منهم من لم يتمكن الكفر في قلبه ، ومنعا للناس من الهجوم على التكفير . فليعتبر بهذا متفقهة زماننا الذين يسارعون في تكفير من يخالف شيئا من تقاليدهم وعاداتهم وإن كان من أهل البصيرة في دينه وإيمانه والتقوى في عمله ، ولم يكونوا على شيء من ذلك." [تفسير المنار / الجزء الرابع، محمد رشيد رضا]

وحكى القرآن الكريم إعراضهم عن التحاكم إلى كتاب الله: ﴿ **وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّـهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَـٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّـهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ . وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ . أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّـهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّـهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَن يُطِعِ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّـهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [النور: 47: 52] فمنهم من في قلبه مرض، ومنهم المرتاب، ومنهم الشاك في عدل الله ورسوله ﷺ، وجميعهم ظالمون، وجميعهم كان الرسول ﷺ يعاملهم بظاهر إسلامهم، ويكشف القرآن الكريم حقيقة كفرهم أو مرضهم أو ظلمهم.. ليفتح الطريق لهم للتوبة، ولتحذر الأمة المسلمة من سلوك مسلكهم.[1]

[1] وأحوال المنافقين في القرآن الكريم، تحتاج إلى بحث نفسي وتحليلي مستقل، نسأل الله أن يفتح علينا – أو على غيرنا – بجمعه ودراسته، وعسى الله أن يهدينا لأقرب من هذا رشدا.

(3) **التكذيب بالدين:**

﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ . فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ . وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ . فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ . وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ** ﴾ [الماعون: 1، 7]

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً** ﴾ [النساء : 10]

جعل القرآن الكريم الُمكذب بالدين – في سورة الماعون – ذلك الذي يدُع اليتيم ويقهره ويظلمه، ولا يحض على طعام المسكين، وجعل الويل والعذاب للمصلين الذي يصلون في الظاهر، ولكن عن حقيقة صلاتهم التي تأمر بالمعروف من الإحسان والزكاة وبذل الخير، والتي فيها الإخلاص لله سبحانه غائبة بل هي رياء وسمعة،. فنعم هي صلاة لكن بلا عمل قلبي، وبلا خُلق سلوكي هذه الصورة جعلها القرآن الكريم (تكذيب بالدين) ولكن أبقى اسم الإسلام لمن يظلم اليتيم، ولم يحض على طعام المسكين، ولم يأمر بالشق عن صدور الناس للبحث عن الإخلاص !.

(3) **القاتل العمد:**

﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً** ﴾ [النساء: 93]

فكان قتل النفس المعصومة من أشد الحرمات عند الله، وجعل جزاء المرتكب لها النار، وغضب الله، ولعنته، والعذاب العظيم، ومع ذلك كان القاتل العمد من المسلمين تجري عليه أحكام الإسلام، ويُقتل حداً أو الدية. وهناك من يجعل قوله { متعمداً } أي مستحلاً لذلك وبها يَكفر، وللقاتل العمد توبة – بإذن الله – عند مذهب أهل السنة.[1] ومثل ذلك في بقية الكبائر، الوعيد الشديد فيها وينفي عن مرتكبها – حال ارتكابها – حقيقة الإسلام ومقاصده، وفي نفس الوقت يعامل مقترفها معاملة أهل الإسلام. فعن عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا وَهُوَ أَحَدُ النُّقَبَاءِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: " **بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللهُ فَهُوَ إِلَى اللهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ** "، **فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِك** [صحيح البخاري/ 18]

***

---

[1] راجع – إن شئت – تفسير القرطبي فيها.

ثانياً: سيرة النبي ﷺ

كانت سيرة النبي ﷺ في المنافقين مضرب المثل في الرفق والرحمة، وكان ﷺ يفيض بالرحمة، بل كان يحزن ويتحسر عن إعراض المشركين، ونجد في قصة رأس النفاق ابن سلول مثالاً لذلك: " **لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، أَتَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ، قَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ، فَإِنْ كُنْتَ فَاعِلا فَأْمُرْنِي بِهِ، فَأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمَتِ الْخَزْرَجُ مَا كَانَ بِهَا رَجُلٌ أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّي، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ رَجُلا مُسْلِمًا فَيَقْتُلَهُ فَلا تَدَعُنِي نَفْسِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى قَاتِلِ عَبْدِ اللَّهِ يَمْشِي فِي الأَرْضِ حَيًّا حَتَّى أَقْتُلَهُ، فَأَقْتُلَ مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ فَأَدْخُلَ النَّارَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "بَلْ نُحْسِنُ صُحْبَتَهُ وَنَتَرَفَّقُ بِهِ مَا صَحِبَنَا** " [دلائل النبوة للبيهقي/ (4 : 62)]

وعن **جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ، قَالَ سُفْيَانُ: مَرَّةً فِي جَيْشٍ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَاكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: " مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ "، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: " دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ "، فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، فَقَالَ: فَعَلُوهَا أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَامَ عُمَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ "** [صحيح البخاري/ 4905]

عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ، أَنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ عَدِيٍّ حَدَّثَهُ: " أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيْنَا هُوَ جَالِسٌ مَعَهُ أَصْحَابُهُ، جَاءَهُ رَجُلٌ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي أَنْ يُسَارَّهُ، قَالَ: فَأَذِنَ لَهُ، فَسَارَّهُ فِي قَتْلِ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فَجَهَرَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ؟ قَالَ: بَلَى، وَلا شَهَادَةَ لَهُ قَالَ: أَلَيْسَ يُصَلِّي؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ لا صَلاةَ لَهُ، قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ نُهِيتُ عَنْهُمْ ". قَالَ الشَّافِعِيُّ: فَأَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْتَأْذِنَ فِي قَتْلِ الْمُنَافِقِ إِذْ أَظْهَرَ الإِسْلامَ أَنَّ اللَّهَ نَهَاهُ عَنْ قَتْلِهِ، قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَرُوِّينَا فِي الْحَدِيثِ الثَّابِتِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، فِي قِصَّةِ الرَّجُلِ، الَّذِي قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: اتَّقِ اللَّهَ فِي الْقِسْمَةِ الَّتِي قَسَمَهَا، وَاسْتِئْذَانِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ فِي قَتْلِهِ، وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: لا، لَعَلَّهُ يَكُونُ يُصَلِّي[1]، قَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنِّي لَمْ أُوْمَرْ أَنْ أُنَقِّبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ، وَلا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ" [السنن الكبرى للبيهقي/ (8 : 194)]

---

[1] قوله ﷺ "لعله يصلي" لأنه لم يحمل السلاح ويفتن المسلمين عن دينهم، فعلة القتال الاعتداء على المسلمين، والتحزب ضدهم، ومثله حديث: "لا ما صلوا" في أئمة الجور.. هذا في حالة عدم وجود أسباب القتال وممارسته ضد المسلمين، فالقتال ليس لمجرد انحرافاهم الشخصي، أو مجرد وجود مظالم فردية لبعض الناس.

وقد حكم القرآن بكفر المنافقين، ونفى عنهم حقيقة الإسلام، ولكن مع ذلك تم معاملتهم بظاهر الإسلام.. وهذا حالهم يوم القيامة: ﴿ **يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ** ﴾ [الحديد : 13]

ومسألة ظاهر الإسلام كأنها بالتعبير المعاصر "مواطن" يأخذ الجنسية الإسلامية، ولا تُنزع عنه إلا بالخيانة العظمى، أو الرغبة في التخلي عنها، أو محاربة هذه الجنسية والهوية.. وكل ما يقترفه صاحب هذه الجنسية من كبائر يُعامل معاملة المسلمين في كل شيء، وفي نفس الوقت لا يُسمح لأمثالهم أن يتولوا أمور المسلمين سواء في القيادة والحكم أو التوجيه والفكر، وإلا أخذوا المجتمع كله نحو النفاق.. كما حصل في كثير من بلاد الإسلام !.

ومن أمثلة رحمته عفوه ﷺ عن الذين حاولوا اغتياله في العقبة التبوكية، وقال فيهم: " **أَكْرَهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ** " [المعجم الأوسط للطبراني/ 8100] وإن كان وجه الاستدلال هنا يتحدث عن المآلات، إلا أنه يشير إلى مسألة الانتساب للأمة الإسلامية، واختلاف التعامل مع المنتسبين إليها.

وهناك جملة من الأحاديث الشريفة التي تحدثت عن أحوال الإيمان وما يناقضها من الأفعال مثل:

" **لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ** "[صحيح البخاري/ 2475]

" **مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا** "[سنن ابن ماجه/ 2225]

" **لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ** " [صحيح البخاري/ 1294]

" **سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**"[صحيح البخاري/ 48]

" **مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ فِيمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ**"[المستدرك على الصحيحين(: 8)]

فمن يفعل هذه الأفعال لا يكون – عند ارتكابه لها – مؤمناً على الحقيقة، وعلى جوهر الإيمان الصحيح، ولكن هذا النفي لا يساوي أنه دخل في دين الكفر ! – كما فهم بعض الذين يُكفرون بالذنوب – بل هو على ارتكابه جميع هذه الأفعال التي لا تصدر عن مؤمن بحق، يبقى له حقوق الانتساب للإسلام، ويُعامل معاملة المسلمين.

***

والجاهلية: حالة مناقضة للإسلام، أو حالة جاء الإسلام بخلافها.

كما قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ** ﴾ [آل عمران : 154] ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [المائدة : 50]

﴿**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى** ﴾ [الأحزاب : 33] ﴿ **إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الفتح : 26]

وكما جاء عن النبي ﷺ: " **يَا أَبَا ذَرٍّ، " أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ، إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ** " [صحيح البخاري/ 30] "**ثَلَاثٌ مِنْ عَمَلِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُهُنَّ أَهْلُ الْإِسْلَامِ**"[مسند أحمد/ 7506]

فالجاهلية – كما بيّنت بعض صفتها الآيات والأحاديث أعلاه – قد يتلبس بها المسلم، وتطغى عليه جاهليته، أو عاداته.. ولكن لا يستوي حكمه مع أهل الجاهلية الذين لم يدخلوا في الإسلام، ولم ينتسبوا إليه ! والجاهلية ليست مرحلة تاريخية بل هي أحوال وصفات قد تتجدد في أي عصر متى ظهرت صفاتها، والإسلام يحارب باطل الجاهلية، ويدعو المسلمين المنتسبين إليه أن لا يكونوا على أخلاق وصفات وأفعال وسنن الجاهلية هذه.

ولعل أحوال الجاهلية هذه قد تلبس بها بعض المسلمين في صدر الإسلام، ولكن بعد أن عم الإسلام، وتمكن وانتشر.. فالمسلمين على موعد مع ما هو أخطر من الجاهلية الأولى، موعد مع إتباع سنن اليهود والنصارى ! وقد حذر النبي ﷺ من ذلك أشد التحذير: " **عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، قَالَ: فَمَنْ** "[صحيح البخاري/ 3456]

ونجد أن الأمة الإسلامية سلكت نفس مسلكهم، فقد تفرقوا شيعاً وأحزاباً، وتفرقوا في الدين بغياً بينهم، وكفّر بعضهم بعضا، ولعن بعضهم بعضاً، وضرب بعضهم رقاب بعض ! وقد آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض، وقد ظاهروا على إخوانهم في الدين وأخرجوهم من ديارهم !، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كما فعل يهود، وقد اتبعوا سنن كسرى وقيصر، ونقضوا عرى الدين: " عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " **لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ، عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ، تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا، وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الْحُكْمُ، وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ** "[1] [مسند أحمد/ 21655] ومع ذلك يبقى الوصف العام أنها "أمة الإسلام"..

---

[1] سنعود – بإذن الله – بالتحليل والتفصيل في تتبع إتباع الأمة المسلمة سنن أهل الكتاب في كتاب "أمراض الاستبداد" نسأل الله سبحانه أن يتمه على الوجه الذي يحب ويرضى.

وإن التوجيه المطلوب والصحيح هو: إبقاء وصف واسم الإسلام، والتزام حقيقة ومقاصد الإسلام وأهدافه وغايته. وإن (الفسق) عن حقيقة الإسلام و(الانحراف) عن أهدافه، و(إفساد) مقاصده – كما فعل أهل الكتاب بدينهم – لا يعني الردة والكفر المخرج من الملة.. إنما يعني بقاء أصل الإسلام، وتصحيح وضبط وتقويم هذه الانحرافات. هذا في الحياة الدنيا، أما في الآخرة – وأما على المستوى الإيماني والتربوي – فتبقى الآيات المحذرة من الكبائر والانحرافات على إطلاقها، وليعلم المسلم أنه هو المخاطب بها.. ليحذر، ولينجو بنفسه، فكتابه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا يظلم ربك أحدا.

***

التكفير.. والسلوك النفسي للخوارج

الخوارج من الناحية التاريخية: هم الذين كفّروا الإمام علي – كرم الله وجهه – وكذلك كفروا بعض الصحابة، وفي النهاية قتلوا الإمام علي متقربين إلى الله بقتله ! وكفروا بالذنوب والمعاصي، وكفر بعضهم بعضاً، ولهم من الرموز، والاعتقادات، والأفكار.. ما جعلهم فرقة تتميز عن غيرها.

وتتميز هذه الفرقة بالغلو والتطرف، طلبوا الحق، فطغوا في طلبه.. فضاع الحق، وبقي البغي.. حالوا حل مشكلة واحدة بسلسلة متصلة من المشكلات !

ولكن المتتبع لـ "البعد النفسي" للخوارج، قد يجده عند غيرهم من الجماعات والأفكار والاتجاهات.. بمعنى أن المسلم قد لا ينتمي إلى الخوارج ولا إلى مرجعياتهم، ولا يُكفر الصحابة، بل يُجلهم.. ولكن سلوكه النفسي والفكري يشابه الخوارج ! ولذلك يجب أن نحذر من هذا المسلك النفسي الخطير، فقد يقول المسلم: أنا لا أقول بما تقول به الخوارج – وأتبرأ منهم – ولكنه دون أن يشعر يكون على نفس مسلكهم النفسي، بل نجد هذا المسلك النفسي عند غير المسلمين، فهو حالة نفسية عامة.. نتحدث عن أبرز معالمها:

أبرز ما يميز المسلك النفسي للحالة الخارجية هو:

- **التوتر النفسي، والعصبي.. والعاطفة الجياشة الحادة:** ولذلك قد جعلها هذا التوتر والعاطفة من أشجع الشخصيات المحاربة والمقاتلة ! حيث المحاربة والقتال تصرف من طاقة العاطفة الحادة، وتطمئنها فيما يبدو. والتوتر النفسي يعطيها سرعة الاستجابة، فهي عندما ترى الظلم والقهر، فإنها تنفعل سريعاً للقضاء عليه.. دون تروي، وتفكير، وتدبر، وإعداد، وتمهيد. فهي لا ترى إلا ضرورة عاجلة للقضاء عليه، حتى ولو ترتب على هذا الظلم هلكتها، أو ترتب على عملها مظالم أكثر.

- **الاغتراب النفسي، والاجتماعي:** تشعر هذه الشخصية بحالة من الاغتراب النفسي الدائم، وعدم الانسجام الداخلي، مما يؤدي إلى حالة من "الهوس" الذي معه تفقد آلية القراءة والفهم والنظر، وتتميز بالعمى عن رؤية الأمور الواضحات، أما الاغتراب الاجتماعي فهي تشعر دوماً بالوحدة والتفرد والعزلة، والعداء للمجتمع لصمته على الظلم وعدم مقاومته، فتتعامل معه بنوع من الحساسية المفرطة، والاستعلاء الدائم.

- **القسوة على النفس**: تعاني هذه الشخصية من شدة القسوة على نفسها، وشدة التعامل معها.. ولا ندري بالضبط سبب ذلك، هل هي عوامل نفسية أو بيئية أو تربوية أو وراثية؟ أما جميعها متداخلة؟! وبالتبع تكون فظة غليظة على غيرها، وقد تنكسر النفس أثناء هذه القسوة، فتجنح إلى الفجور والعصيان، ثم تعود وتندم، وهكذا !

- **الرغبة في التفرّد والتوحد**: تشعر هذه الشخصية بنوع من العظمة الداخلية، وبالتفرد عن المجتمع الضال المنحرف، وتجد في نفسها أنها النموذج المثالي للحياة والدين والذي يجب عليه أن يكون كل الناس، ولهذا فهي تفشل في التواصل الاجتماعي الفعال، وينفر منها الناس، ولا تستطيع إدارة الاختلافات فيما بينها وبين الناس، فتلجأ إلى القوة لحسم الخلاف !.

- **البراءة من الناس**: تعتقد هذه الشخصية أنه حتى تكون على الإيمان القويم أن تتبرأ من جميع المخالفين، ولا تنظر لأي اعتبارات أخرى، فتعتبر من أصول الدين البراءة من المخالفين الذي يكون عنوانه "البراءة من المشركين" فهذه ملة إبراهيم ! فهم لا يميزون بين من يعبد الأصنام ويسجد لها، ويسخر من الله ورسله، ويكفر بالبعث والحساب، وبين من يشهد بالتوحيد، ويستقبل قبلة المسلمين، ويقع في كبائر أو غيرها.. ومن ثَم يُفتح باب التكفير على مصرعيه، لرمي المسلمين بالشرك والردة،[1] ويكون من لا يتبرأ من بعض المسلمين – المشركين بزعمهم – فهو مثلهم، وهكذا، مما يؤدي إلى حالة من "الهوس التكفيري" والهوس بإجراء الأحكام على الناس، وسرعة إطلاقها.

- **التلذذ بتجييش الأعداء**: تتلذذ هذه الشخصية بتجييش الأعداء ضدها، فهي تتخذ من ذلك دليلاً على صحة مسلكها، وأنها وحدها دون أمة الإسلام كلها هي "الطائفة المنصورة" ولذلك فالجميع ضدها ! ولا تحاول تحييد الأعداء، ولا تستطيع التمييز بين العدو شديد الخصومة، وبين الأقل خصومة، وبين المحايد، فهي تستفز الجميع ليكون ضدها، وتعطيهم جميع المسوغات لمحاربتها، ومن ليس معها، فهو ضدها.. فهي تعتقد أنه عند هذه الحالة من المفاصلة سينزل عليها النصر بطريقة سحرية قدرية غامضة الأسباب، ولذا يكون لديها ولع شديد بقضية النبوءات وأحداث النهاية والملاحم.

---

[1] وقد حذر النبي ﷺ من هذا الفعل، فعن حذيفة أن النبي ﷺ قال: "**إِنَّ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى رُئِيَتْ بَهْجَتُهُ عَلَيْهِ، وَكَانَ رِدْئًا لِلإِسْلامِ، غَيَّرَهُ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ، فَانْسَلَخَ مِنْهُ وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَسَعَى عَلَى جَارِهِ بِالسَّيْفِ، وَرَمَاهُ بِالشِّرْكِ "، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَيُّهُمَا أَوْلَى بِالشِّرْكِ، الْمَرْمِيُّ أَمِ الرَّامِي؟ قَالَ: " بَلِ الرَّامِي**" [صحيح ابن حبان/ 81]

- **العمى السياسي**: تصاب هذه الشخصية بالعمى السياسي، ولا تجيد العمل السياسي ابتداء، وترى في المرونة ضعفاً وذلاً واستكانة، وترى في الدبلوماسية ولاية للكافرين، وربما تُكفر من يفعل ذلك ! ولا تستطيع قراءة المشهد السياسي، وتوازنات القوى، وبناء التحالفات، ولا تميز الواقع السياسي من حيث: الفرص المتاحة، والانسداد المستحيل، وإمكانية خلق الفرص، وتغير توازنات القوى في كل مرحلة، والمحافظة على الممكن، وطلب ما هو غير ممكن، وبين دفع شر الشرين، وتحصيل خير الخيرين. هي فقط تريد الصدام المسلح، والموت في سبيل المبدأ، فهي تستسهل الموت في سبيل المبدأ عن الحياة لبناء المبدأ ! ولذلك تذهب تضحياتها هدراً في النهاية، أو يسرق الأبصر سياسياً ثمرة كفاحها.

- **سطحية النظر في النصوص**: تشعر هذه الشخصية عند وجود نصوص شرعية أو فقهية تخالف مسلكها، بحالة من "الإنكار والرد" وتفهم النصوص بطريقة سطحية توافق المقررات النفسية والعاطفية الطاغية عليها، ومن ثم كل ما هو مخالف، فهو مردود، ولديها ولع باعتقاد جميع أخطاء العلماء أو زلاتهم، لتحشد لنفسها الأدلة الشرعية والمسوغات الدينية لمواقفها وأفعالها، وأحياناً الاستخفاف والاستهانة بالعلماء، واتباع الهوى في البحث عن الأدلة، وتجِد في التشغيب على كل ما يخالفها من النصوص، وتضعيفها، أو اعتقاد أنها تؤمن بها، وأنها في ذات الوقت تطبقها على أحسن وجه وإن كان واقعها خلاف ذلك تماماً.. مما يؤدي إلى التناقض النفسي، الذي ربما يسبب لها بعض الوساوس، فقد تُكفّر نفسها حيناً، وقد تكفر أقرب الأقربين حيناً آخر، وتحسب أنها ارتدت وعليها الغسل والشهادتين من جديد !

- **الكبِر**: عندما تعتقد هذه الشخصية أنها وحدها "الطائفة المنصورة" وتمضي في عزلتها النفسية والاجتماعية، تكون شديدة العبادة شديدة التدين لتثبت لنفسها أنها تستحق أن تكون "الحالة المثالية"، وللأسف يدخل الشيطان لها من مدخل "العبادة والتدين" فيقول لها: من أشد إيماناً منكِ، إنكِ الأفضل، انظري إلى ملايين الفسقة والمنحرفين... إلخ، حتى تشعر بحالة من الكبر، والمنّ بعملها وعبادتها، والحق إن الشيطان يسلك كل سبيل – سواء مع هذه الشخصية أو مع غيرها – لينفخ في ذات الإنسان ليجعله يعتقد أنه أصبح إلهاً في الأرض، فيدخل للغني من باب الغنى، ويدخل للمتعلم من باب العلم، ويدخل لصاحب السلطة من باب المُلك... إلخ، يدخل لكل صاحب نعمة ليجعله يَكفر بها، ويقول كما قال قارون في ماله وثروته: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص : 78]

- **تحويل الرسالة إلى حالة أيديولوجية**: رسالة الإسلام رسالة عامة شاملة، وفي جميع حالات التعصب والغلو، يتعصب البعض لفكرة ما من أفكار الرسالة، ويحولها إلى "أيديولوجية – تعصب فكري" بديلة عن رسالة الإسلام، أو اختزال مخل لها، ولِولع هذه الفكرة بالتغيير العنيف المفرط والسريع، تختزل رسالة الإسلام كلها – على سبيل المثال – في الجهاد القتالي، وتريد من الأمة كلها أن تنزل إلى ساحة معركتها، فهي ترى القتال بغض النظر عن نجاح هذا القتال من عدمه، فهو واجب في كل حال؛ مما يؤدي بها إلى "العزلة العسكرية" وتحوّلها إلى مجرد مليشيا مسلحة – تسيء إلى الجهاد كأحد الوسائل لبناء دولة الإسلام – وتفشل في النهاية، ويسهل القضاء عليها، أو توظيفها لصالح الأعداء دون أن تشعر.

- **الجهل وسوء الخلق**: يغلب على هذه الشخصية العاطفة الحادة والصادقة كثيراً، والانفعال الصادق تجاه الواقع، فطغيان هذه العاطفة كثيراً ما يحجب العقل ويضع عليه سُتر كثيفة، مما يؤدي إلى الجهل أو تجهيل كثير من الأمور، فالعاطفة الجياشة ليس لديها الروح والوقت للتأمل العقلي، والنظر الدقيق فهذا مجرد تنظير فارغ في وقت احتدام المعارك، وتبريد قاتل لهذه العاطفة – التي لا شك في صدقها – مما يجعل هذه الشخصية تغفل كثيراً من الأمور، ويكون الجهل أحد المداخل للأعداء للالتفاف حولها للقضاء عليها أو توظيفها. ولعل سوء الخُلق – في أحيان – هو أيضاً بسبب العاطفة الجياشة التي تحطم وتنسف من يقف في طريقها، أو ينتقد طوفانها، أو يسخر من تناقضاتها، فعندها تفقد هذه الشخصية شعورها، وتروح تسب وتلعن وترمي بالردة والزندقة من يتجرأ على الوقوف أمامها.

- **الحق المطلق**: تعتقد هذه الشخصية في نفسها أنها على الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا تلقي بالاً لأقوال غيرها، ولا تعتبرها، ولا تنظر إلى من يخالفها إلا نظرة احتقار وازدراء ! وتروح تفتش لكل مخالف عن خطأ أو زلة لتحطمه بها، أو تُكفره بسببها ! ولما كانت تعتقد الحق المطلق فيكون لديها تنطع شديد في الفهم والتنفيذ، والتعميم الحاد والمطلق.. مما يُسيء إلى ما تؤمن به، ويصد الناس ربما عن الدين كله.

هذه المعالم النفسية التي قد نجد بعضها – أو كلها – في الشخصية التي تسلك المسلك النفسي للخوارج، وقد تتطور هذه العقد النفسية للقضاء على الإنسان، أو قد تنحل واحدة تلو أخرى، والله الرحيم جعل تغيير ما بالنفوس حقيقة ممكنة يستطيع أن يدركها كل إنسان إذا صدق النية، وعزم التوكل على الله.

وهذه الشخصية – لا شك – لديها "غلو في التكفير" – وغلو في الممارسات الفكرية والسلوكية عموماً – ونحن في هذا الجزء من البحث نحذر من كل طريق من الوقوع في الغلو في التكفير، وغلق بابه الذي يأتي من ورائه الشرور والإفساد، وتدمير التضحيات، وضياع مشروعات التغيير، فالغلو في التكفير هو الصخرة التي يتحطم عليها تضحيات الشباب، وتضيع عندها قضايا الأمة المصيرية.[1]

***

الحالة النفسية للوهن والاستضعاف

وإذا نحن تحدثنا عن حالة النفسية الخارجية، فلا بد أن نشير إلى إلمامة سريعة عن الصورة المناقضة للنفسية الخارجية، وهي النفسية التي تعيش حالة "الوهن.. وحب الاستضعاف".

ومن أهم معالم هذه الشخصية:

- **الخوف المفرط**: تُبالغ هذه الشخصية في مسألة الخوف، وتستسلم له بدلاً عن مقاومته، وترى في كل محاولة لكسر حاجز الخوف الذي يصنعه الطغاة والطواغيت محاولة ستبوء بالفشل حتماً، أو هي تدبير مخابراتي – ومؤامرة – لضرب الجميع، ولا تفكر في العمل بصورة جدية بوسائل مكافئة للواقع لتغيير هذا الواقع وعدم الاستسلام لباطله.

- **القابلية للاستضعاف**: تعيش هذه الشخصية حالة من الوهن والضعف، وتتلذذ بالعيش في المحن والصبر عليها، وقد تدافع عن الباطل، أو تختلق له الأعذار، بينما لا نجد مثل هذه الأعذار لمن يحاول المقاومة، وتتخذ من أخطاء المقاومة – أو بعض انحرافاتها – دليلاً عن صحة مسلك الاستضعاف، والعيش في ظلاله والركون إليه.

- **الانخداع بالظالمين**: يسهل خداع هذه الشخصية من قبل الطغاة والبغاة، ولا ندري السبب الحقيقي لهذه الصفة، هل لاحتراف الطغاة وسائل الخداع والسيطرة على العقول؟ أَم أن هذه الشخصية تريد أن تخدع نفسها بوعود الظالمين، وبدلاً عن مقاومتهم، تشاركهم – وربما تحبهم ! – لتدفع شبح الخوف من قهر واستبداد الظالمين؟!

---

[1] راجع – إن شئت – بحث: الغلو في التكفير.

- **سخافة العمل السياسي**: تظن هذه الشخصية أنه بمجرد أن تنجح في صناديق الاقتراع أنها ستصل إلى الحكم ويمكنها التغيير المنشود، ولا يكون ذلك أبداً، إذ أن مشروع التغيير لا بد وأن يكون متكاملاً في كل اتجاه، وتتحقق فيه "المعادلة الصحيحة" الدقيقة حتى يأتي ثماره.

- **اللا أدرية الحركية**: قد تصل هذه الشخصية إلى حالة من اللا أدرية أو العدمية الحركية والسياسية وذلك عندما تنشد الإصلاح والتغيير دون سلوك الطريق الصحيح له، فهي قد تستجيب لنداء التغيير (فلا تستسلم) ولكنها لا تنهض للقيام بسننه (فلا تقاوم الباطل) فتقف في منتصف المسافة بين الحق والباطل، وتتذبذب؛ فيتحول عملها إلى "محرقة" للتضحيات والأعمار وتضيع الفرص.

- **اعتقاد القوة لا الحق**: تُولع هذ الشخصية – وكثير من الناس – بمن يملك القوة سواء قوة المال أو السلطة أو الإعلام أو السلاح، وتركن إليه.. وأما الحق المجرد عن القوة فتزهد فيه، ولا تعبأ به، فسيطرة حالة الخوف تخلق هالة مقدسة حول القوة لا الحق. وحالة التقديس للقوة تخلق حالة "الرضى والمتابعة" على الظلم والباطل والكذب، ويجعل هذه الشخصية تدور مع صاحب القوة حيث كان، فمواقفها تابعة لمن يملك القوة لا صاحب الحق.

والشخصية السوية المنشودة التي نريد بنائها لمقاومة الطغاة والطواغيت لا يمكن أن تكون نفسية خارجية أو نفسية الوهن.. بل لا بد أن تكون نفسية سوية مستقيمة: شجاعة رحيمة.. هينة لينة.. مرنة قوية، تأبى الذل، وتأبى الاستضعاف.. تحمل الرسالة بشمولها لا مجرد أيديولوجيات متعصبة.

***

واقعنا المعاصر.. وضرورة الثورة

ليس غرض هذا البحث تفصيل واقعنا المعاصر، وإنما الغرض منه الانتقال إلى كيفية مواجهة هذا الواقع، وقد سبق الحديث – في مقالات سابقة عن هذا الواقع[1] – ولكن لا بأس من الاختصار هنا.

بعد سقوط الدولة العثمانية – كآخر مظهر سياسي لوحدة المسلمين – عمل "الاستعمار" (الحملات الصليبية) بقيادة بريطانيا وفرنسا على عدم عودة هذه الوحدة بأي صورة من الصور سواء في صورة "الخلافة الإسلامية" أو في صورة اتحاد إسلامي حقيقي، أو حتى في صورة هوية إسلامية جامعة، وتم استبدال الوحدة الإسلامية بالوحدة القومية، والهوية الإسلامية بالهوية العلمانية، واستبعاد أي مظهر سياسي أو هوياتي للإسلام، وصار الإسلام مجرد "دين" يعتبر حرية شخصية للإفراد – وحتى هذه مسموح بها في حدود معينة – وتم استثارة الشعور القومي بدلاً عن الشعور الإسلامي، واستحياء التاريخ الجاهلي بدلاً عن التاريخ الإسلامي، ومن ثم الاعتزاز بالأوطان بدلاً عن الاعتزاز بالإسلام.. والاستعمار هو الذي حدد مفهوم الوطن، وحدوده، وما يدخل فيه، وما لا يدخل!! وتم للحملات الصليبية رسم الحدود بين المسلمين، وتمزيق وحدتهم، وتشتيت فكرهم، والتعمية على عدوهم الحقيقي !

وتبعاً لهذه الحملات الصليبية التي كانت تتم تحت شعارات "الديمقراطية، والمساواة، وحماية الأقليات، وحماية مصالح الدول العظمى، وحماية خطوط الملاحة، وحماية أمن ما يُسمى إسرائيل، وحماية السلام العالمي...إلخ" نشأ من وراء ذلك ما يسمى "الدولة الوطنية القطرية الوظيفية" التي تؤدي عن المحتل الأجنبي الدور في تركيع الشعوب، وتعويق نهضتها، وكبت حريتها، وتعطيل ريادتها، وسرقة مقدراتها وثرواتها، وإفسادها بالبغي والاستبداد، فأدت "الأنظمة الحاكمة" دورها على أكمل وجه، بل وأشد وحشية مما كان يصنعه الاستعمار العسكري القديم !!

وصارت جميع مؤسسات الدولة في خدمة "أنظمة الحكم العميلة للمحتل" وصارت كافة أنظمة الحكم في خدمة المحتل والأسياد في الدول العظمى.. ونشأت الشعوب وأجيال متتالية تحت وطئة هذه "المنظومة السياسية" التي هي أشبه بالسجن الكبير.. حيث الشعوب هي المسجون، والأنظمة الحاكمة هي السجان، وصاحب القرار والسلطة الحقيقية في واشنطن أو باريس أو لندن أو موسكو !![2]

---

[1] راجع – إن شئت – كتاب: واقعنا المعاصر، جاهلية القرن العشرين للأستاذ محمد قطب رحمه الله، ومقالات ولقاءات الدكتور أكرم حجازي وفقه الله، وغيرهما.

[2] راجع – إن شئت – مقال: مؤسسات الدولة الوظيفية.

ومن علامات النفاق وأعمال الكفر التي تلبست بها هذه الأنظمة، والتي هي في نفس الوقت تعتبر صك وضمان الشرعية الدولية لهذه الأنظمة:

- **عدم التحاكم لشرع الله:**

فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّـهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا . فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّـهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا . أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّـهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ [سورة النساء 60: 63]

- **الإفساد في الأرض مع زعم الإصلاح:**

فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [سورة البقرة: 12]

- **تفرقة الأمة وخيانتها ومحاربتها:**

فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة : 107]

- **ولاية الكافرين :**

فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّـهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّـهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [سورة المائدة: 51: 52]

- **رياء الناس:**

فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّـهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّـهَ إِلَّا قَلِيلًا . مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّـهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ [سورة النساء: 142: 143]

- كراهية ما أنزل الله، وكراهيتهم للجهاد:

فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّـهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّـهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ . فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّـهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ . أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّـهُ أَضْغَانَهُمْ . وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّـهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ . وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّـهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّـهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [سورة محمد: 25: 32]

- قربهم للكفر بما اكتسبوه:

فقال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّـهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [آل عمران: 167]

- تخذيل المسلمين وإضعاف شكوتهم:

فقال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّـهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ٤٧ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّـهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ [سورة التوبة: 47: 48]

- الانبهار بالكافرين وقوتهم، واستحقار المسلمين وقدراتهم:

فقال تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّـهِ فَإِنَّ اللَّـهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة الأنفال: 49]

- محاربة الدعوة الإسلامية، ونشر الفتنة:

فقال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّـهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّـهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ [سورة التوبة: 48]

- **الكذب وطلب رضى المسلمين– لا رضى الله – عند انتصارهم:**

فقال تعالى: ﴿ **يَحْلِفُونَ بِاللَّـهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّـهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ . أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ** ﴾ [سورة التوبة: 63]

- **الاستهزاء بآيات الله :**

﴿ **يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّـهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ . وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّـهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ . لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ** ﴾ [سورة التوبة: 64: 66]

- **الأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف:**

فقال تعالى: ﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّـهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . وَعَدَ اللَّـهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ اللَّـهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ** ﴾ [سورة التوبة: 67: 68]

ونجدها جميعها ظاهرة في الأنظمة الحاكمة لبلادنا، بل أشد وأنكى! وكل هذا من الفساد والظلم والتسلط والبغي والعدوان؛ وبه تنحل عقدة الأمة وروابطها، وتتفسخ عراها ووحدتها، ويدب فيها الوهن والضعف الذي يغري كل عدو بالفتك بالأمة المسلمة. ومحاربة كل محاولة للنهوض من جديد – ولو فكرياً – وتجفيف منابع الدين والجهاد، ونشر ورعاية الفسوق والعصيان والانحلال، وتدمير الإنسان المسلم، وأسرته وتجارته وحياته.

وقد أدى قيادة المنافقين للأمة للفساد في كل مجال: الفساد السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والأخلاقي، والفكري، والنفسي، فأضعفوا الأمة من كل طريق، وسلّموها لقمة سائغة للأعداء، بل وظاهروا العدو على المسلمين وأخرجوهم من ديارهم. وعملوا على خلق الفوضى، ومباركة الظلم، وتحول كل طاقات المجتمع لحماية عروش الظالمين.

فتخصصوا وأبدعوا وأتقنوا صناعة الخوف والقهر والرعب في النفوس حتى لا يخرج من يقول للظلم والبغي "لا"، وتخصصوا وأبدعوا في صناعة الفقر والعوز والحاجة حتى لا يجد أحد من الناس وقتاً ليتفكر في حال أمته، فضلاً عن أن يشارك في صناعة التغيير.

وتخصصوا وأبدعوا في صناعة الفساد، حتى أصبح الصلحاء من الناس يمثلون خطراً على "الأمن القومي" لهذه الأنظمة، فمجرد وجود صلحاء – بغض النظر على توجهاتهم – جريمة يعاقب عليها الطغاة والبغاة.

وتخصصوا وأبدعوا في صناعة الجهل، واغتصاب العقول، وتغييب الوعي، وضخوا آلاف الملايين من أجل إشغال الناس عن دينها وحقوقها وحياتها.

وأما المجالات التي بها تقوى الدول، وتخرج بها إلى مصاف الأمم العالمية، والريادة الدولية فلا تكاد تجد شيئاً إلا التبعية المُذلة، والاحتماء بالخارج، وطلب رضى ولي الأمر في تل أبيب وواشنطن، فهؤلاء هم ضمانة العروش، واستقرارها. ذلك لأنهم بلا ظهير شعبي وطني حقيقي، وبلا شرعية إسلامية، - بل وحتى بلا شرعية بالمعايير الديمقراطية! – وهم متسلطون على شعوبهم، فلا بد من طلب الشرعية والرضى من ولاة الأمر في المنظومة الدولية حتى يستقر حكمهم في هذا الظلام الجبري والقهر المستمر !

وإن الذي يحصل مِن كثير من النظم ببلادنا المسلمة يجعلنا نتساءل في حيرة، هل لو كان الاحتلال الاستعماري المباشر – في حقبة ما قبل الاستقلال أو زعم الاستقلال بتعبير أدق – كان سيضر بمصالح الشعوب، مثلما تضر هذه النظم بشعوبها، وتدمر مقدراتهم، وتستبيح دمائهم؟! أم أن العبيد يتنافسون ويتسابقون أمام أسيادهم ليثبوا لهم أنهم أشد عبودية، وخدمة لهم، وأنهم يقدمون لهم أكثر مما يريدون بكل إخلاص وإيمان وإحسان، كل ذلك في مقابل الحفاظ على العرش !؟

***

وبقي أن نقول رؤية فقهاء السلاطين حول ما سقناه من حال هذه الأنظمة:

فقهاء السلاطين يدافعون عن هذه الأنظمة بغض النظر عن الجريمة التي ترتكبها، فهم في حالة دفاع دائم، واعتذار مستمر، وإثبات مؤبد أن هذه الأنظمة على الحق، ولها الشرعية الإسلامية، والديمقراطية ولها حق السمع والطاعة:

ففي مسألة التحاكم إلى غير الشرع يقول – على سبيل المثال – مفتي مصر: "إن الشريعة الإسلامية مطبقة في مصر ولم تغب عن الواقع المصري والعربي والإسلامي...

والقوانين الوضعية في مصر في مجملها لا تختلف عن مقررات الشريعة الإسلامية، بل هناك رقابة من المحكمة الدستورية العليا التي هي حريصة على أن تكون القوانين مطابقة للشريعة وفقاً للمادة الثانية من الدستور.

وأشار مفتي الجمهورية إلى أن قانون العقوبات كذلك في مجملة ليس مخالفًا للشريعة، لا في نطاق الفلسفة ولا العقوبات وعن تطبيق الحدود الشرعية قال "قانون العقوبات المصري يتنوع ما بين القصاص والعقوبات التعزيرية وهي تعطي فرصة للمشرع والقاضي لتطبيق ما يراه ملائمًا في الحالة المعروضة عليه"، منوها بأن تطبيق الحدود لابد فيه من نفي الشبهات تمامًا، ونحن في زمان لا نطمئن فيه إلى أن يتم نفي جميع الشبهات لأنها أصبحت محيطة بكافة القضايا، ومن الصعب الاطمئنان لشهادة الشهود في الكثير من القضايا...

ولما رفعت قوانين المحاكم المختلطة وقوانين المحاكم الأهلية التي نفذت في سنة 1875 وسنة 1883 م إلى الأزهر الشريف، شكلت لجنة من علماء المذاهب الأربعة لمراجعتها، وأعدت تقريراً جاء فيه: "إن هذه القوانين ببنودها، إما أن توافق نصاً في أحد المذاهب الأربعة أو أنها لا تعارض نصاً فيها، أو أنها تعتبر من قبل المصالح المرسلة التي يجوز الاجتهاد فيها رعاية لمصالح الناس... ونقر بأن هناك بعض النصوص في القانون تحتاج إلى تعديل تشريعي، وما دامت السلطة التشريعية قائمة ممثلة في (مجلس الشعب) فإن ذلك يعطي مساحة للمشرع أن يوافق النصوص الدينية الداعية لإقامة الحد كعقوبة قانونية يوقعها الحاكم أو من ينوب عنه (السلطة التنفيذية) في إقامة ذلك." [مجلة الأزهر/ 2017]

وفي مسألة ولاية الكافرين: يقولون إنما هو تعاون وتبادل مصالح، ودفاع مشترك.

وفي مسألة محاربة الدعوة الإسلامية: يقولون إننا نحب الإسلام، وندافع عنه من كيد وتدبير المنظمات والهيئات الإرهابية المتطرفة التي تسيء إلى الإسلام.

وفي قتال أهل الإسلام وإخراجهم من ديارهم: يقولون إنهم إرهابيون، أو يحمون الإرهاب، أو إننا نحميهم، ونحافظ على مؤسسات الدولة وشرعيتها !!.

وهكذا في كل فعل نفاق أو كفر. ومن الفقهاء من يحترف الدجل باسم الدين، ويدافع عن الفسقة الفجرة المجرمين وهو يعلم أنه كذاب منافق، ومنهم من يكون مخدوعاً ولا يفقه شيئاً عن الواقع السياسي، ويعيش في هواجس الفتنة، حتى يسقطوا جميعاً في الفتنة، ويفسدون على الأمة كل محاولة للتحرر من هذا الظلم والفساد.

ولقد حوّل فقهاء السلاطين الإسلام إلى مجرد خادم للعرش وحامي له، وجعلوا المؤسسات الدينية مجرد ألعوبة في يد الحاكم يحركها كيف يشاء، ويوجه الفتوى فيها حيثما رغب ! فجعلوا الإسلام كالمسيحية في العصر الروماني مجرد طقوس وشعائر، تؤيد الإمبراطور وتباركه أينما ذهب، ومهما فعل !

وإننا نرى الأمور بصورة عكسية:

فنرى أنهم لا يتحاكمون إلى كتاب الله، بل يتخذونه دخلاً، ويجعلون منه أداة لحماية عروشهم. وإنهم لا يتولون أعداء الأمة، بل هم مجرد خدم لهم – وإن كان لهم هامش من الحرية والحركة لضمان استمرارية خدمتهم[1] – وإنهم يحاربون الإسلام لا مجرد حركات إسلامية تنازعهم السلطة.

وإن الإسلام الذي نريد ليس الإسلام الذي هو في خدمة العرش، بل الإسلام الذي يَعلو، ولا يُعلى عليه.. إسلام السيادة والريادة والهوية والشريعة والحضارة. والنظام والدولة والمجتمع له خادم وليس العكس.

ونؤكد في هذا الجزء ما أثبتناه سابقاً أننا نتعامل مع هذه الأنظمة – رغم نفاقها وفسادها – على أنها أنظمة باغية، وإن بلادنا ديار إسلام، وليست ديار كفر، وأهلها مسلمون إن شاء الله، يُعامل فيها الجميع معاملة أهل الإسلام، وما يقع فيها من فساد وبغي وأفعال كفر ونفاق فإننا نواجهه بالوسائل المكافئة دون الحكم بالردة على أحد.

وأما بخصوص ما يتشدق به فقهاء السلاطين للدفاع عن البغاة والطواغيت بحديثي: "وإن ضرب ظهرك" و"لا ننازع الأمر أهله" فقد سبق الحديث المفصل عنهما في مقالي: "منازعة أولي الأمر" و"إن ضرب ظهرك".

وإن كان من إضافة قصيرة هنا، فنقول: إن الرسالة التي تأمر بالعدل والإحسان، وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي لا يمكن أن يَأمر رسولها ﷺ بالطاعة المُذلة القاهرة المُستبدة الظالمة مع ضرب الظهر وأخذ المال، وإن حديث صحيح مسلم هو: "وإن ضُرب ظهرك" أي: فعل مبني للمجهول وليس هو فعل الأمير الذي هو خليفة عن رسول الله ﷺ في الرحمة والعدل وإحقاق الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو على نفس سياق حديث خباب: "**عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِّ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: " أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو لَنَا؟، فَقَالَ: قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِّ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى**

[1] ومنهم من يستطيع المناورة للحصول على بعض الاستقلال الحقيقي، نتيجة لزيادة وعي الشعوب، أو رغبة في السيادة والتوسع.

حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَّ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ " [صحيح البخاري/ 6943] فهذا الحديث يدعو إلى التمسك بالحق، والتضحية في سبيله، وعدم ترك الدين عند الفتنة والاضطهاد والقهر، وإن كان هذا حصل من كفار قريش، فماذا سيكون حال من ينتسب إلى بني جلدتنا، ويستقبل قبلتنا، ولكنه يفعل أشد مما فعلت كفار قريش، ويتدنى في الفجور والعداوة إلى ما دون أخلاق أبي جهل ! فهل سيأمر النبي ﷺ بطاعة أمثال هؤلاء؟! أم سيدعو إلى التمسك بالحق، والثبات عليه مع الأمير (الخليفة عن رسول الله ﷺ) وإن لحقنا الأذى بأخذ المال، وجلد الظهر ؟!

إضافة إلى أن الطغاة والبغاة بالفعل يجلدون الظهور، ويأخذون الأموال في كل الأحوال، فهم مستبدون متسلطون متجبرون على الأمة، فهم بالفعل أصحاب سلطان مادي قاهر، وحتماً سيكون التوجيه النبوي – كما جاء في أحاديث أخرى – إلى الثبات على الحق، ومقاومة الباطل والظلم والبغي والعدوان.

ولقد نهنا الله سبحانه عن التنازع.. ولكن متى؟ إنه كان بعد طاعة الله ورسوله ﷺ، وسريان تيار ورياح التغيير الإيجابي النافع الرباني في المجتمع، فمن ذا الذي ينازع في مثل هذا الحال؟! فقال تعالى: ﴿ **وَأَطِيعُواْ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَّ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الأنفال : 46]

أما إذا كان الحال: عصيان الله ورسوله وسريان التغيير السلبي الضار، وشيوع المعاصي البواح، فهذا هو الفشل، وغثاء السيل، وضياع وظيفة الأمة المسلمة، وعند إذ يجب إعادة الوضع الذي لا يكون فيه النزاع.. الوضع الرباني الصحيح، الذي فيه الحق والعدل، والقيام بالقسط والشهادة لله.

***

ضرورة الثورة

ولقد دلتنا التجارب التاريخية والمعاصرة على أن "الثورة" هي السبيل لتحطيم أسوار السجن، والتخلص من السجان، والتحرر من هيمنة الأسياد، ولا بد لكل ثورة من قوة تحسم أمرها، ولا بد لكل ثورة من "حرس ثوري" يحمي أهدافها، وقادتها، ويحمي رحلتها من الاستبداد إلى التحرر، ومن التبعية إلى الاستقلال، ومن الإفساد إلى العدل والحق.

وحتى تنجح هذه الثورة لا بد من العمل على كل المستويات: الدعوية، والسياسية، والجهادية (العسكرية)، والإبداعية، والتقنية... إلخ.[1]

***

وإذا كان نحن نتحدث عن ظلام وفساد وإفساد هذه النظم، فلا يجب أن ننسى حال بعض طوائف هذه الشعوب، والتي – وللأسف – وبطول الاستبداد والقهر، تحولت إلى حالة أشد فساداً من حكمها ! بل وتؤيد هذا الفساد، والظلم.. وترضى به، وتُتابع عليه، ولا تجد عنه بديلاً ! ولا رغبة في التغيير ! وهذا الصنف من الشعوب هو الذي يتصدر الواجهة الإعلامية، والثقافية، والفكرية.. حتى تتعمم رؤيتهم على باقي طوائف الشعب، وأما الذين يقاومون هذا الظلم – ولو فكرياً – يتم حصارهم، وتغييبهم، واتهامهم بأبشع التهم، ولا مانع من قتلهم إن لزم الأمر !.

ولقد حكى القرآن الكريم في أكثر من موضع عن حال هؤلاء المستضعفين (أو التابعين للطغاة والطواغيت) وهم يتبادلون التهم مع طغاتهم، ويلقي كل فريق باللوم على الآخر يوم الحساب! فالذي يرضى ويُتابع على باطل أو ظلم يصبح شريكاً للطغاة والظالمين، وهؤلاء الذين نعتهم القرآن بـ "القوم الفاسقين". أما المستضعفين الذين يرفضون هذا الظلم – ولو قلبياً – ولا يرضون به، ولا يُتابعون عليه، فهؤلاء هم "المتقون" بإذن الله.

وهناك صنف من الناس يرفض الإصلاح – وهو يعلم أنه إصلاح – لمجرد أن تكلس عقله، وتعود على وضع لا يريد أن يتغير حتى ولو سيعود عليه بالنفع والصلاح !.

---

[1] راجع – إن شئت – بحث: الثورة الإسلامية، اضطراب مفهوم الجهاد والشريعة من كتاب: انحرافات في الحركة الإسلامية.

وإننا في صناعة معادلة الثورة والتغيير، لا يجب أن نغفل عن هذا "الصنف المُستغفل" من الناس، ولا عن صنف "الملأ" الذي ترتبط مصالحه الاقتصادية والاجتماعية بصورة أصيلة بأوضاع الظلم والفساد، فمثل هؤلاء سيكونون ألد الأعداء لأي إصلاح أو تغيير حقيقي، ويجب أن يكون في الحسبان آلية منضبطة للتعامل معهم، وصد محاولة إفشالهم للإصلاح.

كما أننا في نفس الوقت لا ننظر إلى الأمور بصورة سوداوية قاتمة.. إنما ننظر إلى الواقع كما هو ونرصد كل محاولة إحياء أو خير أو تغيير، فقد يقع في النظم الحاكمة شيء من إصلاح – لسبب ما – فهذا أمر لا يجب إغفاله أو تهوينه أو التقليل منه، بل يجب أن نبارك كل إصلاح، ونؤيد كل تعاون على البر والتقوى، وكل ما فيه نفع للناس وخير لهم.

كما أن الشعوب لا تبقى أبد الدهر على حال واحد، فقد يحدث تغيير بطيء، أو جذري نتيجة للدعوة أو متغيرات عالمية أو وسائل اتصال أو غيرها، وفي مثل هذه الحالة لا يجب أن نظل نردد نفس التوصيفات السابقة، فالحياة كلها في حالة ديناميكية – حركية، وفي كل مرحلة وتوقيت يجب أن يكون لدينا التوصيف الصحيح، والعادل.. لنكن على صواب في فكرنا وحركتنا، ونقدم دعوتنا وثورتنا في إطارها الصحيح، والقريب من الناس، والمتصالح معهم، والصابر على ضعفهم وجهالتهم.

***

شرعية المواجهة

إن رسالة الإسلام تهدف إلى صلاح الإنسان والحياة، وإقامة الحق، وإشاعة العدل بين الناس كلهم.

قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [النحل : 90]

﴿ **إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً** ﴾ [النساء : 58]

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** ﴾ [النساء : 135]

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة : 8]

والظلم والبغي والعدوان هم مما يُفسد الإنسان والحياة، والإسلام لا يُعطي الشرعية أبداً لأي ظلم أو فساد أو بغي تحت أي مسمى، بل هو حرب على كل ظلم وفساد، وللأسف عمل بعض فقهاء السلاطين – والذين خدعوا كثيراً من الشباب المسلم – على شرعنة الظلم، وإعطائه حق الحياة.. بل إعطائه "الشرعية الإسلامية"! حتى أصبح وقوع الظلم، ووجود الفساد لا يُحرك الغضب في النفوس، ولا الغيرة في القلوب.. وأصبح بعض أصحاب التوجهات العلمانية أشد رفضاً للظلم والفساد من بعض أصحاب التوجهات الإسلامية! نتيجة الأفكار المسمومة المُقدّمة لهم باسم الدين، واعتبار أن المواجهة – ولو فكرية – أو الاعتراض على باطل أو بغي أو ظلم، هو فتنة عمياء، يجب السكوت التام عنها ! حتى عشش الظلم والفساد وأصبحت الأمة الإسلامية عنواناً له – ولا حول ولا قوة إلا بالله – والأمة الإسلامية الحقة إنما هي أمة الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يد الظالم والباغي، وإرغامه على الحق إرغاماً، وهذا الذي جعلها خير أمة أُخرجت للناس..

ونسوق هنا جملة من الأحاديث النبوية توضح هذا المعنى:

" عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، أَنَّهُ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ** ﴾ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " **إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ** " [جامع الترمذي/ 2168]

"عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " كَانَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا عَمِلَ الْعَامِلُ مِنْهُمْ بِالْخَطِيئَةِ نَهَاهُمُ النَّاهِي تَعْزِيرًا، فَإِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ، جَالَسَهُ، وَآكَلَهُ وَشَارَبَهُ، كَأَنَّهُ لَمْ يَرَهُ عَلَى خَطِيئَةٍ بِالأَمْسِ، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، ضَرَبَ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ دَاوُدَ، وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا، وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ ﷺ بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ السَّفِيهِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيَلْعَنَكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ " [مشكل الآثار للطحاوي/ 1163]

"عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِذَا رَأَيْتَ أُمَّتِي تَهَابُ الظَّالِمَ أَنْ تَقُولَ لَهُ أَنْتَ ظَالِمٌ، فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ " [مسند أحمد/ 6745]

عن رسول الله ﷺ قال: " **لَا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لَا يَأْخُذُ الضَّعِيفُ فِيهَا حَقَّهُ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ** " [سنن ابن ماجه/ 2426]

"عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ تِسْعَةٌ، فَقَالَ: " **إِنَّهُ سَتَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ، مَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَيَّ الْحَوْضَ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَهُوَ مِنِّي، وَأَنَا مِنْهُ، وَهُوَ وَارِدٌ عَلَيَّ الْحَوْضَ** " [سنن النسائي الصغرى/ 4207]

وفي رواية: " **أَعَاذَكَ اللَّهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ** "، **قَالَ: وَمَا إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ؟ قَالَ: " أُمَرَاءُ يَكُونُونَ بَعْدِي لَا يَقْتَدُونَ بِهَدْيِي، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُمْ، وَلَا يَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ، وَسَيَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي، يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، وَالصَّلَاةُ قُرْبَانٌ، أَوْ قَالَ: بُرْهَانٌ يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ، النَّارُ أَوْلَى بِهِ، يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، النَّاسُ غَادِيَانِ فَمُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، وَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا "** [مسند أحمد/ 14032]

"عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: " مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا[1]، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ " [صحيح مسلم/ 1849]

"عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا " [صحيح البخاري/ 2493]

"عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، أَن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي، إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ، حَبَّةُ خَرْدَلٍ " [صحيح مسلم/ 52]

***

[1] فما بالنا إذا كانت وظيفتهم استهداف الأبرار المؤمنين وفتنتهم عن دينهم، ومباركة الفجار؟!

الشرعية لمن ؟

الإسلام يعطي "الشرعية الإسلامية" للحاكم الذي يقوم بكتاب الله، كما جاء في الحديث الشريف: "عَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ، عَنْ أُمِّهِ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ: " **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ مَا أَقَامَ فِيكُمْ كِتَابَ اللهِ** " [مسند أحمد/ 16213]

ويأمر الأمة بأن تتبع هذه القيادة وتطيعها في المعروف، ولا تنازع الأمر أهله، ويحذرها أشد الحذر من الطمع في منصب أو سلطة أو مال أو متاع، فيروح بعضها ينازع السلطة من أجل متاع الدنيا الزائل، ويعتبر منصب الحكم هو أمانة عظيمة وخطيرة، والويل كل الويل لمن يفرط فيها، فتكون عليه "حسرة وندامة" يوم القيامة، فمنصب الحكم ليس هو للشرف وللرياسة والتعاظم على الناس، وليس هو لتحصيل الأموال، ولا توريث الحكم للذرية والأبناء، بل هو أمانة كبرى، وخلافة عن رسول الله ﷺ في أمته، ليقوم الخليفة بحمل مقاصد الرسالة وأهدافها نيابة عن رسول الله ﷺ فيشيع جو الرحمة، والعدل، والأمانة، والصدق، وإقامة القسط على النفس والأقربين أولاً، وينتصف للمظلوم، ويأخذ على يد الظالم، وهذه ليست أموراً خيالية نقولها من وحي الخيال، إنما هي من "واقع الرشد" وما قام به الخلفاء الراشدون من بعده..

فالإسلام يأمر الأمة بالطاعة في المعروف، وعدم منازعة أولي الأمر الشرعيين من جهة، ويأمر أولي الأمر كذلك بعدم إتباع سنن كسرى وقيصر في "الملك العضوض" والاستبداد الغاشم الظلوم. وبذلك يغلق باب "الحسد والطمع" "والغل والبغضاء" الذي تأتي منه كافة الشرور والآثام على الأمم، بل ويهلك الحضارات الكبرى كذلك !.

وعندما تنقلب الصورة، ويأتي الأمراء الظلمة والمستبدون، الذين يخرجون عن سنة رسول الله ﷺ، ويتبعون سنن أهل الكتاب، ويقولون ما لا يفعلون، ويظلمون، ويكذبون، ويُفسدون.. وتظهر المعاصي والكفر البواح، فالإسلام ينزع عنهم "شرعية" الحكم، ويخلع عنهم ربقة الطاعة، ويأمر بمقاومة هذا الظلم، ونزاع السلطة المستبدة.. باسم الله، ابتغاء مرضاة الله، على صراط الله، وهذه المنازعة ليست لاستبدال طاغية بآخر، وليست أبداً للصراع على متاع الدنيا الزائل، ولا للطمع

في مال، ولا الكِبر والغرور برياسة، بل هو "جهاد في سبيل الله" لإعادة الأمور إلى وضعها الصحيح دون انتظار جزاء أو شكورا سوى ابتغاء وجه الله الكريم.

وفي هذه الحالة تعود الشرعية إلى أصحابها الأصليين وهم "الأمة بمجموعها" ويمثلها أهل العلم الصادقين العاملين المتجردين لله ورسوله ﷺ الذين يقولون الحق لا يخشون في الله لومة لائم، والذين لا يكتمون ما أنزل الله من البينات، والذي يقومون بالحق ويشهدون بالقسط. فالسلطة الظالمة أصبحت هي **"الخوارج"** عن سنة الرسول ﷺ، والخارجة على الأمة بظلمها وفسادها واستبدادها.

فالإسلام – يقيناً – لا يعطي الشرعية للفساد، ولا يعطي الشرعية للنفاق، ولا يعطي الشرعية للاستبداد، ولا يعطي الشرعية للبغي، ولا يعطي الشرعية لأفعال الكفر والباطل.

فالجماعة التي تخرج عن السلطان العادل الذي أمر الله ورسوله ﷺ بطاعته وعدم الطمع في منصبه فهؤلاء هم **"الفئة الباغية"**.

والسلطة التي تخرج عن سنة رسول الله ﷺ، وتخرج على الأمة بظلمها وفسادها وتستبيح دمائها وثرواتها، وتتبع سنن كسرى وقيصر؛ تصبح هي **"الفئة الباغية"** وتسقط شرعيتها كاملة بما ارتكبته من بغي وإفساد وظلم للأمة كلها.

فهناك ثلاثة أنواع للخروج الباطل:

- **خروج على الحاكم الشرعي**. (بخروج فئات باغية تريد الحكم وتطمع فيه).
- **خروج على الأمة**. (بظلمها، والاستبداد بها، وقهرها، واستباحة دمائها وثرواتها، وخيانة رسالتها، وتصبح السلطة الحاكمة هي "الفئة الباغية").
- **خروج على النظام العادل**. (وفيه قد يكون الحاكم عادلاً، ولكنه بلا سلطة، ويُتلاعب به.. والبطانة أو الملأ حوله يُفسدون نظام الأمة وحكمها، وفي هذه الحالة يجب معالجة الأمر بالوسيلة المناسبة التي تحق الحق، وتفضح وتقاوم الباطل، سواء من خلال مؤسسات القضاء – إن وجدت – أو جماعة العلماء – إن وجدت – أو باتحاد الفئات الفاعلة في الأمة لرد هذا العبث بمصير ومقدرات الأمة).

ويُفترض أن يقوم أهل العلم الصادقين بدورهم المنوط بهم، والأمانة العظيمة التي يحملونها في تثوير الأمة كلها، ودعوتها إلى رفض الظلم، وعدم المتابعة على الباطل، وعدم الاستكانة للبغي، ورد "الشرعية" إلى أهلها، وإزاحة السلطة الفاسدة بالوسائل السلمية أولاً، فإن لم تُفلح.. واجهت الواقع بوسائله المكافئة، حتى تعود حياة الرشد، والحكم الرشيد إلى التوجيه والسلطة مرة ثانية. ومن هنا تأتي شرعية مقاومة وجهاد البغاة، وتنتقل الشرعية والسلطة للأمة متمثلة في علمائها، وفي الفئات الداعية إلى مقاومة الظلم، وإقامة العدل برؤية واضحة جامعة. متعاونة على البر والتقوى، غير متعاونة على الإثم والعدوان.

وإذ لم يكن هناك أهل العلم الصادقين، أو عدم وجود الفئات الفاعلة في الأمة، نعود إلى الخطوة السابقة، وهي خطوة تكوين وتربية وتأهيل أهل العلم الصادقين، وإنشاء الفئات الفاعلة في الأمة، وإذ لم نجد الآليات إلى ذلك نعود إلى الخطوة السابقة، وهي "الدعوة" إلى ذلك، والإسلام بدأ كدعوة، وكل حركة تغيير تبدأ كدعوة وفكرة.. وليس معنى الدعوة هو الانعزال عن قضايا الأمة على طريقة من يزعم "التصفية والتنقية" ثم يُشغل الشباب بثرثرات فارغة، وقضايا تافهة.. إنما التحرك في كافة الخطوط، واستغلال كافة الفرص المتاحة، وخلق للفرص الغير متاحة، حتى لا تتأزم قضايا الأمة المصيرية أكثر فأكثر، بل التخفيف من حدتها وخطورتها مطلوب في كل مرحلة، حتى يتم الحل النهائي لها.[1]

وإننا راضون مطمئنون بما نصل إليه – طالما أخلصنا النية، واستفرغنا الوسع – ولا يستبد بنا الاضطراب والفشل إذ لم نحقق مشروعنا في جيلنا أو لم نر ثماره بعد – لا قدر الله – فإن هذا العمل – في كل مراحله وأحواله – هو لله وحده لا شريك له، ولا يجعلنا تأخر النصر والتمكين أن نتصرف برعونة أو سفه، أو نحرق مراحله اللازمة؛ لأننا نعرف أن قدر الله يمضي وفق سنن لا تحابي أحداً، وما يهم المسلم في هذه الحياة الدنيا، أن يجد في كتابه يوم القيامة عمل صالح يشفع له عند الله.

وإننا في مشروعنا هذا لا نطلب الموت والهرب من الحياة.. إنما نريد الحياة والنجاح فيها، وعمارتها وخلافتها على المنهج النبوي الراشد، ولقد وعدنا الله سبحانه التمكين، ولا يتخلّف وعده، إنما نحن من نتخلّف عن هديه وسننه.

***

[1] راجع – إن شئت – : آلية قراءة قضايا الأمة المصيرية، وفصل: "إهمال قضايا الأمة المصيرية" من كتاب انحرافات في الحركة الإسلامية.

متى يحصل التغيير على مستوى الأمة؟

كما سبق الذكر.. هناك فئات من الأمة تكون أسوأ من حكامها، بل وتعمل الأنظمة الفاسدة الباغية على مباركة هذه الفئات، وتصديرها في أمكان التوجيه والقيادة، وجعلهم هم "المواطنين الشرفاء" وغيرهم عملاء وخونة وإرهابيين وخوارج ! حتى يتم تشتيت دعوة الحق، وترسيخ وجود الباطل، ومن رحمة الله سبحانه أن جعل الباطل زهُوقاً.. ومهما انتفش فسيموت ويُدمغ.

ومن أجل عدم انتشار الفسق في الأمة – لتتحول إلى حالة أشد بغياً وظلماً – لا بد من الدعوة الصادقة المستمرة إلى الخير، والعدل، والرحمة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن رحمة الله كذلك أن جعل الحق ظاهراً إلى يوم الدين، قد ينحسر في زاوية، قد تقوم عليه الدعاية الخبيثة، قد يُغبش عليه السحرة والفجرة.. لكنه يبقى صامداً لمن يريده، مبذولاً لمن يبحث عنه، قائماً لمن يريد القيام به.

ومن رحمة الله أيضاً أن جعل "سنة التغيير" سنة اجتماعية كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللهَّ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[الرعد : 11] ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَّ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الأنفال : 53] حتى تستمر الدعوة، وتستمر عملية إنقاذ الغافلين، قبل أن يحين موعد الحساب.

والتغيير للأسوأ يقع بسبب فسق الشعوب، وهي التي بفسقها تصنع الطواغيت وتألههم، وتخلع عليهم صفات الربوبية ! جهلاً منها وضعفاً، ووهناً.. ولو نظرت لنفسها لعلمت أنها الأقوى، وإن الطغاة والطواغيت مجرد أفراد لا قيمة لهم بغير انحاء الشعوب لهم !

وإن منظومة الفساد في أي مجتمع تتكون من: (1) نظام باغي فاسد. (2) الملأ المنتفع من هذا النظام. (3) المجتمع السلبي تجاه هذا الفساد والبغي..

والتغيير يبدأ بالمقاومة، ورفض الظلم، وعدم إعطاءه حق الحياة والشرعية، وإن جوهر قيام الأمة المسلمة بعد الإيمان بالله واليوم الآخر.. هو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن هنا البداية..

ولكن.. متى يحصل التغيير على مستوى الأمة؟

إجابة هذا السؤال عند الفئات الفاعلة في الأمة، والتي تقود مسيرتها الدينية والسياسية والثقافية والتربوية، وتقول بعض الدراسات إن (5٪) من مجموع الأمة إذا وصلوا إلى مرحلة الاتحاد على الأهداف، والإخلاص لها، والتضحية في سبيلها تستطيع أن تنجز مشروع التغيير، فليس الأمر كما يظن البعض أن الأمة كلها مطلوب منها أن تكون قادة وعلماء وكوادر.. الصحيح أن (1٪) من الأمة من العلماء والقادة تكون كافية، و(4٪) كوادر ومستعدون للتضحية.. وباقي الأمة تنتظر حركتهم، لتباركها، فهناك فئة تصنع (**معادلة التغيير**) وهي العناصر الممتازة من الأمة، والآباء المؤسسين للدولة وأتباعهم وهم فئة الـ (5٪)، وهناك فئة (**تستجيب**) لمعادلة التغيير، وهم العناصر الطيبة الخيرة في الأمة.. وهؤلاء يكونون أقل من (50٪) وهناك فئة (**سلبية**) تقاوم أي تغيير، ومُتكلسة على صورة نمطية، ونظمت حياتها على الوضع الراهن، ولا تريد تغييره حتى ولو إلى الأفضل، وهذه الفئة قد تصل إلى (20 إلى 30 ٪) وهناك فئة (**محاربة**) لمعادلة التغيير والثورة، وهي النظام الحاكم والفئة المستفيدة اقتصادياً واجتماعياً منه وهي تمثل أيضاً حوالي (5٪).. وهي التي نسميها **"الفئة الباغية"** وهي التي تسرق ثروات الأمة، وتعيش على الفساد، وتتنفس الظلم، ولا يعنيها أي شيء سوى المحافظة على السلطة والمال فيما بينها.

ونلحظ من هذا التقسيم أن فئة الـ (5٪) من صُناع التغيير ستواجه فئة الـ (5٪) من صُناع البغي والفساد.. وهذا معنى مواجهة الواقع بوسائله المكافئة.

ومن هنا يتبين كذلك الفرق بين (الجماعة) وبين (الفئة)..

الجماعة: التي هي على أصل الاجتماع الأول لأمة الإسلام، والتي خرجت من رحم كتاب ربها، واتبعته. وهي الجماعة التي على اجتماع أهل العلم الصادقين الربانيين، الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر في القضايا السياسية والاقتصادية... إلخ، واستجابت الأمة لدعوتهم. وانحرف عن الاستجابة (الفئات السلبية والظلمة والطغاة).. وتصبح هذه هي الجماعة المقصود بها حديث: " **مَنْ خَالَفَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا، خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ** " [مسند أحمد/ 21049]..

أما الطغاة والبغاة، وأما العناصر السلبية المُتكلسة التي ظلمت نفسها، وخرجت من قضية الأمة المسلمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهؤلاء – وإن كثروا – فليسوا بجماعة.. إنما فئة – أو فئات – باغية.

ولنضرب مثالاً – فقط للتوضيح – : "إنني أعتقد أن الحركة الإسلامية بمصر قد وصلت مرحلة الـ (5٪) وربما تعدتها كذلك، وكانت هناك "لحظة فارقة" يمكن عندها ميلاد مصر من جديد، ولكن فات الموعد، فمات الجنين في رحم مصر، وأخرج من الشر والفساد ما لا يعلم مداه إلا الله.. وإن السبب في ذلك هو "أمراض الحركة الإسلامية"، ولعل هذا الأمر من أهم الدوافع التي جعلتني أكتب – والفضل من الله – كتاب "**انحرافات في الحركة الإسلامية**"، حتى تستفيد الأجيال القادمة من الأخطاء الكارثية التي حصلت، والتي حاول الكثيرون دفنها وإخفائها بإلقاء اللوم على العدو".

وإننا نقول هذا الكلام، ونضرب هذا المثال حتى نعرف أن مفاتيح النصر كانت بين أيدينا، وأن الفرصة – بل الفرص – كانت سانحة، حتى لا نقع في اليأس والقنوط، أو نظن أن الأمر بات مستحيلاً، كلا.. والله، إننا بمجرد أن نغير ما بأنفسنا من أفكار باطلة، وموازين مختلة، وأمراض داخلية، حتماً سيتغير ما بواقعنا، بل مع الفضل والزيادة والكرم من الله سبحانه.

وأحسب أن الله – سبحانه – يعطي لكل جيل من هذه الأمة فرصة للتمكين، ولميلادها من جديد.. ونحن الذين نخطأ في رؤية معادلة التغيير، أو يصيب أنفسنا من البغي والظلم ما يمنع النصر، وسنظل كذلك حتى يأتي الجيل الذي يستفيد من تجارب الماضي، ويعزم العزم، ويمضي في الطريق، وهو منتبه لقطاع الطرق، ومنتبه لأمراض نفسه، حتى يصنع لهذه الأمة مجدها من جديد، ويُطهرها مما ألَمَ بها من فساد، وبغي، واستبداد.. لتكون كما أرادها الله.. خير أمة أخرجت للناس.

***

الثوابت والمحاذير أثناء مواجهة الفئة الباغية

لا بد قبل ذكر هذا الأمر أن نؤكد على أمراضنا الذاتية، وإننا بحاجة إلى علاجها أولاً، وقد فصلّت هذه الأمراض – بفضل الله – في كتاب: **"انحرافات في الحركة الإسلامية"** وإننا بحاجة أن نكون أولاً من "أهل العدل والحق والانصاف" حتى لا نكون على أخلاق البغاة والطغاة ! بل يجب أن نكون على أخلاق الرشد والعدل والإخلاص والتجرد لله سبحانه، وإن شرعية مواجهة الفئة الباغية تتلخص في "رد عدوان الظالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين" ورد بغي الباغي، واعتداء المعتدي فحسب.

مع مراعاة تقدير الموقف، وسرعة المتغيرات الواقعية، وتركيبة التوازن السياسي، وخصوصية كل تجربة، ومألات النجاح والفشل..

ونؤكد على أنه كلما ارتفع الوعي، كلما قَلّت فاتورة الدماء والتضحيات، وإنه – في كل الأحوال – لا بد من ضريبة.. وإن ضريبة الذل، والفساد، والبغي، والاستبداد والعبودية لهي أشد فداحة، وخسارة على مستوى الدين والدنيا – ومراجعة سريعة لأرقام الفساد المفزعة والخسائر في الدماء والأموال لكافية لبيان ذلك[1] – وإن ضريبة الحرية والكرامة والعدل والحق لهي أقل تكلفة، وأسعد للإنسان في دنياه، وأصلح له في دينه وعمله.. وهي في الأصل كذلك أداة للأمانة، وحفظ للكرامة، واحترام للإنسانية، واحترام لتضحيات السابقين.

وهناك جماعة من الناس تعيش "هاجس وهوس الفتنة" فتظن كل ضريبة للإصلاح مفسدة وشر يجب الهرب منه، ويفضلون بقاءهم في الظلم والعبودية على العدل والتحرر – ألا في الفتنة سقطوا ! – ظناً منهم أنهم يدفعون المفاسد، ويقولون: دفع المفاسد مُقدم على جلب المصالح... إلخ مما يخدرون به أنفسهم، وأتباعهم.. ويهربون به من تكاليف المواجهة والتي لا بد فيها من جهاد اليد واللسان والقلب.

---

[1] نشير فقط إلى فاتورة الفساد في الدول العربية: " فتختلف التقديرات حول حجم «فاتورة» الفساد التي تسددها الدول العربية سنويا؛ إذ قدَّرتها «المنطقة العربية لمكافحة الفساد» بتريليون دولار، وهو ما يعادل ثلث الدخل القومي العربي خلال النصف الثاني من القرن العشرين، فيما تراوحت تقديرات «البنك الدولي» بين 300 و400 مليار سنوياً، كما كشفت «منظمة النزاهة العالمية» أن 36٪ من المواطنين العرب يضطرون إلى دفع رشاوى لمسئولين حكوميين. وحسب المنظمة نفسها، فإن مصر تخسر 6 مليارات دولار سنويا بسبب الفساد الحكومي." بينما يعيش 100 مليون عربي تحت خط الفقر، هذا عيز ملايين المرضى والضعفاء.

وإنه في حال رد عدوان الظالمين بالقوة، لا يعني فقط الدفاع عن أنفسنا، فالتفكير على أساس مجرد الدفاع عن النفس يعني "الإبادة الجماعية" لأصحاب مشروع التغيير، فبكل تأكيد لن تسمح الأنظمة الباغية بوجود قوة ما تقاومها.. إنما التفكير على أساس "الانتصار" عليها، والتمكن منها، وأخذ زمام المبادرة، في سرعة السيطرة على الأمور، قبل أن تتفاقم الأزمات، وتدخل التحالفات الدولية والإقليمية لنصرة البغي والفساد لتحافظ على مصالحها السياسية والاقتصادية والأمنية.. كل هذه الأشياء لا بد أن تكون واضحة في رؤية أصحاب مشروع التغيير والثورة.

كما يجب الانتباه إلى **"المرحلة الانتقالية"** بعد مشروع التغيير والثورة، وهي مرحلة بالغة الحساسية والخطورة، إذ – في الغالب – تكون أسوأ حالاً من النظام القديم ! ويجب الانتباه إلى طبيعة القياس هنا. فالنظام القديم الباغي المستبد، يكون نظاماً مستقراً – أو شبه مستقر – وشبكة علاقاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية ممتدة ومتراكبة، ومتشابكة المصالح، وكذلك العلاقات الإقليمية والدولية.. ويحاول أن يعطي للناس الفتات الذي به تصمت الأمعاء الجائعة ! فالناس في الأنظمة الباغية والمستبدة والظالمة تستطيع أن تكيف أمور حياتها، قد تكون هناك فترات عصيبة جداً، لكنها تؤثر السلامة، وينقطع الأمل في أي تغيير..

وعند قيام مشروع التغيير والثورة فإن المرحلة الانتقالية بعدها تكون مرحلة اضطراب، قد تجعل الناس تهزأ وتسخر من مشروع التغيير، وتحن إلى النظام القديم ! وتجده – وفق رؤيتها الآنية المحدودة – أفضل حالاً من الحرية والعدل والحق ! وذلك لأنها تقيس بين نظام قديم مستقر، وقادر على موائمة ظروفه، وبين نظام وليد في يومه الأول، فيجب عدم إطلاق الوعود السريعة البراقة بل يجب توطين الناس على رحلة طويلة، نحاول اختصارها قدر الوسع والطاقة.. ويجب التفرقة بين القيادة التي تجيد إدارة المرحلة الانتقالية، والتي يجب أن تكون حازمة، وقوية، وحكيمة، وبين القيادات التي تصلح لوضع مستقر وراسخ لكنها لا تصلح للمرحلة الانتقالية.

ويجب على أصحاب مشروع التغيير سرعة التمكن من القوة قبل أي وعود، وسرعة السيطرة على "المرحلة الانتقالية" ومنع تفاقمها – فقد تؤدي إلى حروب أهلية أو انقسامات حادة أو تدخل دولي – والعمل على سد حاجات الناس المعيشية سريعاً.. فالتمكن من القوة، وسد حاجات الناس اليومية يجب أن يسيرا جنباً إلى جنب.. وعند بدء مرحلة البناء يجب أن لا نبني فوق الركام، بل نبني على أسس قوية ومتينة ومحكمة، حتى لا ينهار ما نبنيه أو يكون على شفا الانهيار، ولا نقنع بالمكاسب الهشة والضعيفة. والحق الضعيف لا يتبناه أحد.

***

ومن الثوابت والمحاذير أثناء مواجهة الفئة الباغية:

أولاً: لا للتكفير.. ولا للقتال على الردة.

وقد أفردنا مساحة واسعة من هذا البحث في معالجة هذه القضية – خاصة قضية مانعي الزكاة – إذ أنها المسوغ الرئيس لكثير من التنظيمات الجهادية في قتالهم الأنظمة على الردة، وقد أثبتنا – والفضل من الله – أن كل منتسب للإسلام، ويستقبل قبلة المسلمين يُقتال قتال أهل البغي عند وجود أسبابه، والاطمئنان إلى مألات نجاحه وإصلاحه.

وقضية التكفير أفسدت كثيراً من العمل الجهادي، وأفسدت المشروع السياسي، والدعوي كذلك، فهي السلاح النووي الذي يُفجر أي جهاد من داخله، ويُفرق الصفوف، ويشتت الجهود.

وأصحاب مشروع التغيير والثورة لا ينشغلون بقضية التكفير، أو الاستجابة العاطفية الغير مدروسة.. إنما ينشغلون بسؤال النهضة، وبتطوير وسائل وآليات المواجهة لتحقيق النصر المطلوب.

والأنظمة الباغية تُبارك دعاوى التكفير، وتنفخ فيها لأنها تستخدمها في الاغتيال الإعلامي والسياسي لأصحاب مشروعات التغيير، بل إن هذه الأنظمة من خلال الاعتقالات والسجون تتعمد "**صناعة التكفير**" في عقول الشباب، عندما يتعمد المحققون سب الله ورسوله ﷺ والدين والملة، والسخرية من كل مقدس، بل وتمزيق المصاحف، حتى يُجن جنون الشباب، ولا يجد أي شك في إطلاق أحكام التكفير، وتصبح قضية تكفير هؤلاء المجرمين قضية عقيدة من أصل الدين، وعليها أصل الولاء والبراء، ومن يتوقف في تكفيرهم، أو حتى يضع عليه قيوداً فهو كافر مثلهم !

وبعد إطلاق أحكام التكفير والردة.. يسحبون الحكم على الوزرات، ثم الأنظمة، ثم الحكومات، ثم باقي مؤسسات الدولة، ثم المؤيد لهم من المجتمع، ثم الساكت عنهم من المجتمع، حتى يصل بهم الأمر إلى تكفير من يُصدر بطاقة الهوية أو جواز السفر، وهذا الكيد الشيطاني الذي يستهدف تدمير الإنسان، وتدمير عقله، وفقدانه توازنه النفسي والعاطفي والفكري، حتى تعود شخصية مضطربة منبوذة مغتربة حائرة تائهة، تعيش هاربة مطاردة منعزلة لا تفكر سوى في الانتقام والموت في سبيل ذلك.

لذا كان غلق باب التكفير هذا من أهم عوامل نحاج أي مشروع تغييري في هذه الأمة بإذن الله.

***

ثانياً: لا للقتال لمجرد القتال

نحن لا نشتهي القتل، بل هو كره لنا.. ونبتغي السلم ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، ولا نقاتل لمجرد القتال، ولا نقاتل لغاية القتال بل هو مجرد ضرورة قصوى لا نلجأ إليها إلا عند العدوان المباشر ضد مشروع التغيير والثورة عندما يكتمل، بل إننا إذا استطعنا القيام بـ "ثورة ناعمة سلمية" يكون حرسها ورجالها في كل مكان قد آمنوا بذلك المشروع، وسعوا إلى التغيير السلمي فنعما هي.. وإذ لم يكن – وهذا غالباً ما يحصل في بلادنا التي لا تملك سيادة حقيقية – فإن مؤسساتها الأمنية والجيوش تستبيح دماء الشعوب، وتفتك بهم في وحشية أشد من وحشية المحتل الأجنبي ! وعندها لا بد من مكافئة الواقع بوسائله المكافئة – كما سبق البيان – ولا بد أن يكون هذا القتال في صورة مشرّفة ومقبولة، ويكون الاستعداد فيها بلغ درجة مظنة تحقيق النصر والتمكن، وتكون الرؤية السياسية والواقعية واضحة بدقة.. والمواجهة ليست في أطراف الدولة والمناطق النائية فيها، بل في مركزها وقلبها، مع سرعة السيطرة على مقاليد الأمور في أقصر وقت ممكن، حتى لا ترتفع فاتورة التضحيات على جميع الجوانب.. وتحديد نوع المواجهة (جزئية، عامة، مفصلية، تكتيكية، استراتيجية...إلخ) ووضعها السياسي والعسكري والشعبي، وعدم التذبذب والتردد عند اتخاذ القرارات، مع وضع خطط احترافية لذلك، وليس عملاً ارتجالياً، أو انجراراً مع تطور الأحداث دون إعداد وتهيئة، مع الاعتماد على الذات، ومواجهة الدساس والمؤامرات باستباقية وحنكة، والحفاظ على وعي الجماهير من الخداع.. والتمسك بزمام المبادرة في كل منعطف سياسي وحركي، والتمسك بخط سياسي صحيح – تحميه القوة – وتوسيع دائرة الحلفاء من مختلف الاتجاهات تحت قيادة موحدة، وأهداف مشتركة عامة لتجنب العزلة والالتفاف حول مشروع التغيير؛ ووضع آليات لمنع النزاع والانقسام الحركي والفكري أثناء وبعد تحقيق النصر، والعمل على متانة الجبهة الداخلية فكرياً وسلوكياً ضمن التأييد الشعبي والجماهيري والحذر من خسارته أو التهاون في مخاطبته باللغة الصحيحة القريبة منهم.

والعمل على إضعاف جبهة الفسدة وعزلهم سياسياً وشعبياً.. لانتزاع النصر الكامل، والحذر من السلام المزيف، والمفاوضات الخداعة، والمصالحة الكاذبة.. فقد تنتصر في ساحة المعركة، وتُقتل في ساحة السياسة والتفاوض!.

فعند بوادر النصر تهرع أنظمة الفاسد والأنظمة العميلة على استدراج المنتصر إلى طاولة المفاوضات باسم "الحل السياسي" والإصلاح المؤسسي... إلخ من المصطلحات التي لا يختلف على صحتها أحداً، ولكنه يكون فخاً، لكسب شرعية للفساد والبغي، ولسحب الالتفاف الشعبي حول مشروع التغيير والثورة، ولكسب الوقت لإعادة الالتفاف لسحق أصحاب مشروع التغيير، فيجب التفرقة بين التمسك بـ "الشرعية السياسية" وعدم العزلة السياسية، وبين أفخاخ ما

يسمى الحل السياسي من المجرمين والفسدة والطغاة.. والذي فيه وعود كاذبة بالإصلاح، أو الإرجاف بالعجز عن مواجهتهم... إلخ.

ويواجه – هذا القتال – المعتدي فقط، ويتحاشى كل مسالم، بل يتجنب حتى المخالفين طالما لم يحملوا السلاح، ويبتعد هذا القتال عن الأعمال الانتقامية، والتفجيرات العشوائية التي يسقط فيها الضحايا والأبرياء، أو يستهدف دور العبادة والأسواق، أو يعتدي على المخالفين في الدين والمذهب، أو يستخدم ما يسمى "العمليات الاستشهادية"، أو يستهدف عائلات المعتدين.. فكل هذه الصور مرفوضة شرعاً وسياسة. ومتى انتهت علة القتال وهي العدوان، توقف القتال، فالقتال للدفاع عن مشروع التغيير والثورة متى وقع عليه عدوان مباشر بالقوة المادية.

***

ثالثاً: لا للتحول لميليشيا مسلحة

المليشيا العسكرية أو التنظيم المسلح الذي يتحول إلى حالة "أيديولوجية متعصبة" يجعل من نفسه الطائفة المنصورة وينعزل عن المجتمع والأمة، ولا يؤمن إلا بمبدأ القوة، ثم يعيش مطارداً في الجبال، منبوذاً من المجتمع، ينزل من مخبأه لينفذ عملية عسكرية، ثم يعود إلى كهفه، أو تطارده السلطات العسكرية وتنفرد به، وتعزله، وتجعله مجرد عصابة مجرمة.. كل هذه الصور مرفوضة، وقد أثبتت عدم فعاليتها ونجاحها على مدار التاريخ..

وإن ما نراه من صور ناجحة هي المقاومة العامة الشعبية، والحرس الثوري، والثورات التي تحميها قوة مخلصة لها، وتكون صورة القتال – كما قررنا سابقاً – على قتال أهل البغي مهما بلغ جرمهم، وبدعهم، ومذاهبهم.

فالمعركة معركة أمة، والنجاح نجاح لها، ولا بد أن تكون مُشاركة إما بالمشاركة المادية الفعلية أو بالمشاركة القلبية المعنوية، فلا بد من وجود الأمة التي تحتضن الثورة، وتحتض من يقاوم ويجاهد ويقاتل من أجلها.

و"**الشرعية**" هي مفتاح نجاح العمل الثوري المسلح.

فالفرق بين مدني يحمل سلاح، وشرطي يحمل سلاح هو شرعية الشرطي في حمل السلاح للدفاع عن وطنه وأمته من المجرمين والمعتدين، فإن تحول الشرطي والعسكري إلى مجرد محارب للأمة، ومعتدٍ على حقوقها وثروتها، وقامت الثورة الجامعة العامة عليه، فقد فقدَ شرعيته وأصبح الشرطي هو المجرم، والمدني الذي يحمل السلاح ليسترد حقوق أمته، ويحافظ على ثورته من الطغاة والطواغيت، سيصبح هو صاحب الشرعية في حمل السلاح، واستخدام القوة. وفقدان هذه الشرعية

أو محاولة سلبها، يعني التحول إلى مجرد "عصابة مسلحة" أو مليشيا منبوذة، ومن ثم يعني فقدان الثورة وسائل حمايتها مما يعرضها للثورات المضادة، والانقلاب إلى حالة أسوأ..

فأهم مقوم من مقومات العمل المسلح في المقاومة وفي تكوين الحرس الثوري هو الحفاظ على "شرعيته" وعلى "قبوله" من الأمة ومباركتها له.. فإن فقد العمل المسلح الشرعية يجب تفكيكه فوراً، والبحث عن بدائل وصور ومسميات أخرى.. ولا يعني ذلك التخلي عن المبدأ أو التولي يوم الزحف أو بيع القضية، ولكن يعني المرونة وسرعة التعاطي مع متغيرات الواقع، فكما قلنا نحن لا نريد الموت فحسب، نحن نريد الحياة والنجاح في مشروع التغيير، وتحقيق نهضة الأمة، وبناء دولة جديدة تُعبر عن رسالة الإسلام من خلال آباء مؤسسين لها، ويعملون على بناء نظامها من جديد.

فالمحور النفسي لرواد التغيير لا بد أن يكون فيه: الإيمان بالنصر ، والخبرة الفنية، والمشورة السياسية الحكيمة والراشدة والمتشوقة للتغيير.

ويجب أن نتذكر أخلاقيات هذا العمل المسلح، والتزام ضوابطه، وأخلاقيته، وعدم التعالي عند حمل السلاح، وامتلاك القوة، وعدم البغي على الناس والتسلط عليهم والاستبداد بهم، والثأر منهم، وعدم ظلمهم، وعدم قهرهم على مذهب أو شيء، فهذه فتنة القوة !! وعدم الاعتداء على أي مسالم كائناً من كان.[1]

***

رابعاً: عدم إثارة اللغط حول المحاكم الشرعية

بعض التنظيمات الجهادية تجعل إقامة المحاكم الشرعية مسألة مفصلية في حركتهم، وتحاول الانزلاق إلى إدارة الأماكن التي تحت سيطرتها ! وربما إن لم تفعل ذلك فقدت رونقها وفقدت الدعم المادي والمعنوي.. وقد أثبتت التجارب التاريخية فشل وخطورة هذا التوجه.

إن تخطي المراحل أو حرقها قد يدمر كل شيء.. وإننا في مشروع التغيير لا نستهدف إقامة المحاكم وتغيير وضعها الحالي من أول خطوة.. كلا، إن هدفنا واضح ومحدد ولن يُخرجنا أحد عن حدود نطاقه وعمله، وهو: القضاء على القوة المعتدية التي تقف في وجه الثورة والتغيير، وأي عمل مسلح وأي مجاهد وظيفته فقط هو **"درع للأمة"** يحمي حقوقها ويحمي ثورتها.

[1] راجع – إن شئت – بحث: عقيدتنا الجهادية.

وأما المحاكم الشرعية وغيرها من الأمور التنظيمية، فهذه ليست مهمته، وليس هذا وقتها.. فالمسؤول عنها بعد قيام الدولة الراشدة المنشودة هم أهل الفقه والقانون والمؤسسات الدينية.. وليس بعض الهواة أو صغار طلاب العلم الذي ينصب نفسه قاضياً ويظن أن حكم الشريعة قد قام بمنصبه هذا !! فيجب أن تكون المحكمة الشرعية الإسلامية نموذجاً عالمياً في الحزم والرحمة والإدارة والدقة والإحاطة بمستجدات العصر[1] وهذا يستلزم وقتاً طويلاً وسجالاً بين العلماء والفقهاء، ولسنا نرغب في التغيير في ضربة واحدة، بل بالتدريج الذي تستوعبه الأمة، ولا ترده أو تنكره.

ولسنا كذلك بمتعجلين في إدارة الوظائف، بل نحن نريد استرداد الدولة وسلطانها وتحريرها من سلطة البغي المحلية، وهيمنة العدو العالمية.. وهي رحلة طويلة، لا نلتفت عنها بأمور ثانوية شكلية أو مسميات فارغة، ولا نُشعر الناس أننا سنأخذ أماكنهم، وسنطردهم من وظائفهم، بل العكس هو الصحيح.. إنما نحاول أن نضع "القوي الأمين" في كل مكان مهما كان مخالفاً لنا، بل ورافضاً لحركتنا.

***

خامساً: عدم العزلة الاجتماعية

الثورة – والقوة التي تحميها – يجب أن تكون عملاً اجتماعياً عاماً، وإلا تحولت لمجرد حركة تمرد أو اعتداء من خارجين عن النظام.. والأنظمة الباغية والطغاة يحاولون دوماً عزل أي حركة تغيير عن المجتمع، وإقامة حواجز وعقبات وأكاذيب بينها وبين المجتمع، حتى ينبذها، وأحياناً ما تنعزل حركة التغيير بنفسها عن المجتمع، وتستجيب لمسوغات ذلك، وهذا مما يكتب عليها الموت.

إن حركة التغيير تبدأ بالدعوة، ولا بد أن تستمر وتعيش هذه الدعوة داخل المجتمع لا منعزلة، ولا بعيدة عنه.. وإذا كانت هي في قلب المجتمع، متفاعلة بآلامه وآماله، فهي في ذات الوقت محصنة من أفكار المجتمع الهابطة، وسلبيته الفردية.

والفكري التغييري – أو الثوري – يجب أن يخترق كافة شرائح وفئات المجتمع، داخل مؤسسات الدولة، وخارجها.. في المنظمات العسكرية والمدنية، في الطبقات الغنية والفقيرة.. بين العلماء ومن دونهم، بين الشباب والنساء، لا بد أن تسري روح التغيير والتحرر وحمل رسالة الإسلام في كل مكان، وتمضي ريحها في قلب كل مسلم.. بلا تنازع ولا بغي ولا طمع ولا حسد ولا كبر. ولا بد من إدراك كل وسيلة لنشر هذه الروح في الأمة. وتكوين الجبهات والأنصار والأحباء في كل مكان.

***

---

[1] راجع – إن شئت – المحكمة الإسلامية.

سادساً: عدم العزلة الإعلامية

في ظل ثورة الاتصالات الحديثة، وفي ظل الهيمنة العالمية عليها.. تعمد أنظمة البغي، وأنظمة الاحتلال العالمية على عزلة أصحاب كل دعوة تغيير – وكل ثورة ولو فكرية – تهدد عروش الطغاة والطواغيت، وتشعل عليهم حرباً إعلامية ترصد فيها مئات الملايين من الدولارات لاغتصاب وعي الجماهير، وتشويه دعوة الحق !

وأحياناً كذلك لا تعبأ بعض حركات التغيير بصورتها الإعلامية، وتقبل – أو لا تقاوم – محاولة عزلها إعلامياً، ومن ثم يتولى الحديث عنها، وعن أخبارها أعدائها !

كما أن بعض حركات التغيير لا تلتفت كثيراً إلى سنن التأثير الإعلامي، والتغير اللحظي والسريع في أدوات التأثير والتوجيه، فنجدهم على نمط واحد في الدعوة والإعلام في صورة الإسلوب الخطابي بنفس نبرة الصوت، والكلمات، والوعيد ! وهذا ليس فقط مما يعزلهم إعلامياً، بل ويُسهل تصنيفهم، ومن ثم الإساءة العامة.

وحركات التغيير الناجحة يجب أن يظل صوتها مسموعاً، وكلمتها عالية، ولديها من الخطط والبدائل في حال الحصار، والكذب والتشويه وبث الشائعات، ولديها من أدوات التأثير المتنوعة ما تستطيع أن تظل محافظة على وجودها الإعلامي وعلى مصداقيتها واحترافها.

***

سابعاً: عدم العزلة السياسية

تعمد أنظمة البغي على أمرين.. **الأول**: عزل حركات التغيير عن العمل السياسي بدعاوى الطهارة والنقاء والتحريم الشرعي. و**الثاني**: على إدخالهم العمل السياسي ضمن شروطهم وفي الحدود التي يسمحون بها، ليستخدمونهم في المشاركة في إثم الفساد لا مقاومته، وفي ظل إعطاء الشرعية لأنظمة البغي بانضمام من يزعم الصلاح لهم.

ويجب أن تنفك العزلة السياسية على كلا الجانبين، فلا معنى لثورة بلا مشروع سياسي، ولا يوجد مشروع سياسي بلا خبرة بالعمل السياسي، وفهم قواعد اللعبة السياسية، وفهم مواطن القوة والضعف في النظام السياسي، ووضع الخطط والآليات لكيفية إصلاحه أو بناءه من جديد، وهذا يستلزم اختراق كافة مؤسسات الدولة، وهو تحدي كبير نسأل الله أن يوفق أهل الحق لإيجاد سبيلاً رشداً لا غلو فيه، ولا إفراط فيه.. يُسهّل عليهم هذه المهمة العظيمة.

ومن جانب آخر لا يسمح أصحاب مشروع التغيير أن يكونوا عمال نظافة تغسل وسخ الأنظمة وتعطيها الشرعية، هذا في الجانب التحضيري للثورة.

أما بعد الثورة فلا بد للثورة أن تسرع بإيجاد "الشرعية" السياسية المحلية والإقليمية والدولية لها، وتفرض نفسها سريعاً لتصبح أمراً واقعاً لا يمكن تجاوزه، وتسارع لبناء التحالفات والصداقات والشراكات السياسية والاقتصادية، بلا تعاون على الإثم والعدوان.

ومن يقدم لنا بادرة خير صادقة، أو تعاون أمين، أو حتى وقف على الحياد.. فإننا نقابل كل ذلك بأفضل منه، وأكرم منه، ولا نفتعل مشكلات ولا نثير عداوات ولا نحزب الناس علينا.

وهذا كله يجب أن يكون واضحاً في مشروع التغيير، وفي خطوة بناء المشروع السياسي والنظام السياسي للثورة.

***

ثامناً: لا للانعزال عن الأمة

حركة التغيير لا بد أن تكون متقدمة على فكر الأمة، وطموحها وأحلامها، ويقودها العلماء والكوادر والرواد، وفي نفس الوقت الذي تكون فيه متقدمة على الأمة، تكون ملتصقة بها أيضاً، لتكون هي القاطرة التي تجر الأمة إلى طريق الرشد – بإذن الله – أما إذا تقدمت على الأمة وانفصلت عنها، فلم يصبح لوجودها شيء يفيد الأمة، فيجب أن تظل متقدمة، وملتصقة بالأمة..

ولا يجب في حركات التغيير الانتصار لأشخاص أو مذاهب أو أفكار أو شيوخ بعينها.. إنما هي حركة رشد، تدور مع الحق حيث دار، وتصطلح مع كل داعية للخير، وتشارك كل متعاون على البر والتقوى. فلا هي تقدم نفسها بديلاً عن العلماء، ولا بديلاً عن غيرهم.. إنما حركة تضحي هي، وتتحمل هي المخاطر ليعود لهذه الأمة ذكرها، وريادتها. وفي خطاب حركة التغيير لا تتعمد الفكر المذهبي أو الحزبي أو المتعصب، إنما هي تأخذ من كل عالم ومفكر – وإن كان مخالفاً – ما يفيد في حركة التغيير وتبرزه، لتظهر حركة التغيير بلا أيديولوجيا حزبية إنما رسالة عامة، ودعوة شاملة، ومتصالحة، وغير متعصبة لطرف على حساب آخر، فتظل حركة التغيير ملتصقة بالأمة، ومُعبرة عن آلامها، وآمالها.. مع محاولة ضم كافة العلماء من كافة الاتجاهات والمذاهب إليها، ودعوة الأمة والعلماء للالتفاف حول المقاومة والجهاد.

فلا بد من المواجهة الجماعية، لأنها قضية عامة.. كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً** ﴾ [النساء : 71] وتفادي أي محاولات للعزلة، وأي محاولات للانفصال عن الأمة.

وإذا حصل وأن انفصلت حركة التغيير عن الأمة لأي سبب، فلا بد من تفكيكها، وإعادة بنائها من جديد، وفق روح ورؤية جديدة، ونؤكد على أن المسميات والكيانات لا تعنينا كثيراً، وليست هي هدفنا، وليس عليها الولاء والبراء.. فأي كيان ننشئه ليحقق مشروع التغيير ولا يؤدي وظيفته، أو يتم حرقه معنوياً أو مادياً.. يجب تفكيكه والحفاظ على ما تبقى منه، لإعادة تدويره مرة ثانية وثالثة وعاشرة في كيانات جديدة، ولا تكون هذه المرونة إلا عندما نتحرر تماماً من التعصب للشيخ والجماعة والحزب، فالولاء للإسلام، والأمة المسلمة، وما دون ذلك مجرد وسائل لتحقيق الغاية الكبرى بتحرير الأمة، وإعلاء كلمة الإسلام من جديد.

***

تاسعاً: لا للعدمية السياسية

القضايا السياسية (وعالم السياسة) – في كافة الأزمنة والأمكنة – ليس فيه أبيض وأسود، وحق خالص، وباطل خالص.. وليس فيه ديمومة، بل هناك "ديناميكية – تفاعلية" تتغير بتغير الفواعل السياسية، والظروف الإقليمية والدولية.

لقد دخل النبي ﷺ في (جوار – حماية) مشرك، و(تفاوض) مع مشرك، و(أعطى) الأموال للمشركين.. ولم "يشترط" عليهم أن يكون على دينه حتى يدخل في حماية مشرك، أو يتفاوض، أو يتألف القلوب. وكل هذا مما تقتضيه الظروف والأحوال، ولكنه في نفس الوقت لم يهادن في دعوته ورسالته.. فالدعوة والرسالة لا بد أن تكون تامة خالصة، تُبلغ كما هي. أما الأمور السياسية فهي حسب معطيات الواقع وظروفه.. وحسب وجود وإمكانية تحصيل خير الخيرين، ودفع شر الشرين.

نخطأ حينما نظن أن "الرسالة الدعوية" كـ "الحركة السياسية" فالرسالة الدعوية يجب أن تكون على صورتها المثالية أو على سيرة النبي ﷺ، أما المواقف السياسية فحسب ما يحقق من الخير للوجود الإسلامي.

يُحول الهوى والتعصب والغلو "المواقف السياسية" إلى قضية براجماتية، مما يفسد علينا "الفكر السياسي الرشيد" فيجب أن نتخلص من حظوظ النفس وحظوظ الحزب والطائفة، لتكون مواقفنا السياسية متجرد وخالصة لصالح المشروع والوجود الإسلامي.

فلا يصح أن نقول إن الجميع على نفس المستوى من العداء.. فيجب أن نُميز بميزان دقيق جداً، خاصة في القضايا السياسية، ولا نشترط أن يكون من يدعمنا على نفس مواقفنا، وإيماننا، واعتقادنا، فهذا لا يحدث في الغالب. فلا يجب أن نُفكر بصورة مثالية، تؤدي في النهاية إلى العدمية الحركية والسياسية.

وفي نفس الوقت لا نسمح لمن يدعمنا أن يخترق مشروعنا أو يحولنا عن أهدافنا، أو يُدس إلينا ما يناقض ما قمنا من أجل تحقيقه،[1] فهذا التوازن الدقيق هو ما يجب أن يتربى عليه الجيل المسلم.. الذي يحمل شعلة "الثورة الإسلامية" ويمضي لبناء دولة مسلمة ذات سيادة وريادة وهوية وحضارة.

***

عاشراً: لا لشرعنة الباطل والبغي والظلم

إن مشروع التغيير والثورة يستهدف القضاء على الفساد والباطل والبغي والظلم، وتحرير الأمة من هذا الأسر، وتخليصها من هذه النكبات.. وإننا في جميع مراحل هذا المشروع وهذه الثورة لا "نرضى ولا نتابع" على أي ظلم، كما حذرنا النبي ﷺ في الحديث الشريف[2]، وإننا في أي ممارسة أو تحالف لا نبرر لظلم أو خطأ مَن يقف بجانبنا، ولا نرضى بباطل في مكان لمجرد وجودنا السياسي أو الاجتماعي فيه.. كلا، فأصالة الرسالة الإسلامية تأبى الازدواجية في المعايير، وتأبى أن يتحول العمل لها، إلى مجرد "مصالح شخصية"، وتأبى أن ترضى بالظلم حتى على أعدى أعدائنا، فهذه الأصالة هي سر تميز وبريق وعظمة الإسلام.. الذي لا يعرف المحاباة، ولا الظلم، ولا العدوان.

ويجب أن تظل هذه الأصالة حاضرة في فكرنا، وفي سلوكنا، وفي مشروعاتنا. ويجب أن تظل المصلحة والمفسدة هي لرسالة الإسلام ومشروعه ودعوته، وليست لذواتنا ومصلحتنا الشخصية أو الحزبية.

وإننا نتعاون على البر والتقوى متى وجدنا لذلك سبيلا، ولا نرضى ولا نتعاون على الإثم والعدوان.

ولا بد للقرار – في كل الأحوال – أن يكون لأصحاب مشروع التغيير والثورة بدون تدخل خارجي، أو إملاءات أصحاب مصالح، أو شروط لمن يدعمنا.. بل يجب أن يظل القرار حراً، نابعاً من مصلحة المشروع العامة، ومصلحة الأمة كلها.

***

[1] على أن كثير من الدعم يكون مشروطاً، أو لاختراق الصفوف، أو للكيد في الخصوم.. فيجب الحذر والانتباه جيداً، وإعلاء مصلحة الإسلام والمسلمين قبل كل شيء.

[2] عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنّ رَسُولَ اللهِّ ﷺ قَالَ: **" سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ، وَتَابَعَ، قَالُوا: أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ، قَالَ: لَا مَا صَلَّوْا"** [صحيح مسلم/ 1855]

حادي عشر: نعم لبناء القوة

لا بد لأي مشروع تغيير وثورة من قوة تحميه، وقوة ترد عدوان المعتدي عليه، ولا بد من بناء هذه القوة بالوسائل المناسبة للعصر والتحديات والإمكانيات، وأول ما يُبنى في الدول بعد بناء الإنسان[1] هو الجهاز الأمني، وأول ما يحمي الثورة هو الجهاز الأمني.. وبنك المعلومات الدقيقة – التي هي خلف السُتُر الكثيفة للواقع السياسي المجهول – وهو الذي يساعد في اتخاذ القرارات الصحيحة بناء على معلومات دقيقة، ومن ثم بناء الجهاز الاستخباراتي، والعسكري، وبناء قوة ناعمة، وخشنة، وذكية، وتقنية، وابتكارية...إلخ[2]، تكون داعمة لحراك الأمة في لحظة التحرك والثورة، وحامية لكوادرها ورجالها.

***

ثاني عشر: لا للمعارضة الشكلية

المعارضة أنواع، ويجب أن نحدد في أيها نعمل، وفي أيها نخطط، ونستثمر.. فهناك:

معارضة كلية: تستهدف بناء الدولة بهوية جديدة، ومشروع جديد، وراية وميلاد جديد.. وهذه المعارضة تعني أن يكون لها الآباء المؤسسين لها، وتأتي هذه الدولة من خلال الثورات في الغالب، وبعد قيام هذه الدولة وميلادها تحتضن كافة التوجهات السياسية (المحافظة، والوسط، والإصلاحية.. إلخ) ولكن الجميع يعمل تحت مظلة الدولة، وفكر آباءها المؤسسين ولا يستطيع أحد أن يقفز على ثوابتها التي قامت عليها، وهذه المعارضة تستهدف القيم الروحية والمادية معاً لتحل محل القيم السابقة.

ولا تسقط هذه الدولة إلا بثورة أخرى تستهدف هوية الدولة ويكون لها راية ومشروع جديد.. هذا ما يسمى "التغيير الجذري"، وأغلب الدول تقوم على الثورات، ويظل الآباء المؤسسين والمفكرين هم أصل الدولة.. فالمنظرين للدولة والذي قاتلوا من أجلها يصبحون هم القاعدة التي ينطلق منها العمل السياسي والبرلماني والاقتصادي. ويجب أن نكون واضحين فيما نريد.

---

[1] راجع – إن شئت – مقال: البناء في الدولة المسلمة.

[2] راجع – إن شئت – فصل: اضطراب مفهوم الجهاد، من كتاب: "انحرافات في الحركة الإسلامية".

المعارضة الضمنية: وهي المعارضة التي تعمل ضمن مظلة الدولة القائمة وضمن إطارها الحالي، وتعمل على التنافس على السلطة، ومقابلة الأفكار الأخرى – كما في الدول الغربية – ولكنها لا تستهدف الأصل الذي قامت عليه الدولة، ولا تسعى إلى تغييره – بل ولا تستطيع – وهذه المعارضة غالباً ما تتعرض لمشكلات الناس المادية الحياتية دون الحديث عن أفكار أو قيم أو أخلاق أو مشروعات قيمية روحية، وتقدم نفسها على أنها البديل السياسي الناجع والقادر على حل المشكلات، وبها يحصل التداول السلمي للسلطة بعد أن تكون الدولة مستقرة على المبادئ التي قامت على أسسها أول مرة.

المعارضة الشكلية: وهي المعارضة التي تعمل تحت مظلة الدولة الباغية والظالمة، وتكون مجرد شكل كلازم من لوازم "العرس الديمقراطي" ولا تؤدي أي دور يذكر، سوى بعض الصداع للأنظمة الباغية، وتكون درجة تأثيرها محكوم بالنظام الدولي الذي يأمر الدول الباغية ببعض الحرية الديمقراطية، ويحاول النظام الدولي أن يكون له سيطرة على النظام وعلى المعارضة معاً لضمان الهيمنة الكلية، وهناك المعارضة الصادقة التي تحاول إبطاء وتيرة الفساد والإفساد، وهناك معارضة تصنعها أو تشتريها الأنظمة لخداع الشعوب.

المعارضة الجزئية: وهي المعارضة التي تكون جزءاً من مشروع كبير، يستهدف اختراق بنية الفساد، وبنية مؤسساته.. للقضاء عليه عن علم ودراية دقيقة واعية بحجمه وشبكة علاقاته، ويستهدف فتح الفرص أمام مشروع التغيير، وهذه المعارضة تسير وسط أوباء وأمراض قد يجعلها تُصاب بنفس المرض، وتُفتن فتغرق في الفساد، ولا عاصم إلا الإخلاص والتجرد لله سبحانه، والمراقبة الدقيقة لمشروع التغيير، وعدم الاستبداد بالرأي، وعدم تبرير أي خطأ، والمحاسبة السريعة على أي تقصير أو تهاون، وإصدار القرارات بصورة مؤسساتية، ووضع الخطط البديلة لإنجاح مشروع الاختراق، أو فتح الفرص لمشروع التغيير.

المعارضة الهزلية: وهي المعارضة التي يكون غاية عملها هو "السخرية" من الظالمين، أي معارضة سلبية.. وخطورة هذه المعارضة أن يتحول العمل من أجل الإسلام، ومشروع التغيير إلى مجرد مسرحية هزلية ضد الطغاة، فهذا يستنزف الجهود، ويضيع الأعمار، وإن كان له دور إيجابي في إيقاظ الوعي عن طريق سحر الكوميديا.. ولكنه بالطبع ليس كل شيء. وليس المطلوب هو مجرد السخرية، إنما مقاومة الباطل، والأخذ على يد الظالم.[1]

---

[1] راجع – إن شئت – : فخ المعارضة.

وأحسب أن مشروع التغيير والثورة يستهدف "التغيير الجذري" وتأسيس دولة بهوية وراية ومشروع جديد، أو بمعنى أدق استرداد حالة الرشد التي كانت عليها أمة الإسلام ودولته بعد اختطافها ممن غرق في وحل "فتنة الملك" وأعماه "الحسد والطمع" حتى استباح كل شيء من أجل الحفاظ على ما سرقوه مِن الأمة، ومَن استعبدوه منها !.

***

ثالث عشر: لا لدعاوى المهداوية

مثلت قضية ظهور المهدي والملاحم وأحداث النهاية محوراً خطيراً في بعض مشروعات التغيير والثورات.. وأدت إلى كوارث حركية وفكرية، فالبعض يربط مشروع تغييره بأحداث النهاية، ويظن نفسه في حالة قدرية كونية، سيتحقق فيها النصر بطريقة سحرية غامضة الأسباب، ويظن أن الأحداث حتماً ستمضي وفق "الرؤية الملحمية" وعندما تمضي الأحداث وفق "السنن الإلهية" تحدث صدمة هائلة، ينهار معها مشروع التغيير والتضحيات..

وإن المسلم يمضي في عالم الشهادة، وفي طريق السنن الإلهية، وينظر إلى نفسه وواقعه أنه يعيش في دورة حضارية إما في استضعاف أو تدافع أو تمكين أو تداخل بين هذه المراحل، ويمضي يحقق السنن الإلهية، دون انتظار معجزة أو التعويل على أحداث النهاية، فكل هذا من مكر وخداع النفس والشيطان للإنسان، والمسلم يمضي في حركة إيجابية حتى قيام الساعة، لا يعبأ إلا بحسن البلاء، وحسن العمل ابتغاء مرضاة الله، وحسن التوكل عليه.[1]

***

رابع عشر: الحياد في جميع القضايا الخارجية

إن الثورة على هذا الواقع في ظل عمالة الباغي المحلي، وطغيان المحتل الأجنبي.. لهو تحدياً من أكبر التحديات، ولهو جهاداً من أعظم الجهاد، وإذا كانت أمة الإسلام في حالة تشرذم وتشتت وتيه، وتعصف بها المشكلات في كل مكان، فإننا لا نستهدف التغيير الكلي العالمي دفعة واحدة، فهذا أمر لا يستطيعه أحد، وخارج عن قدرات أي جيل.. إنما نحن نستهدف "مشكلاتنا الداخلية" نستهدف إصلاح بلادنا أولاً، ومن ثم فنحن لن نزعم أننا سنحرر العالم، أو سنعالج كافة قضايا الأمة المصيرية.. كلا، بل نلزم الحياد في جميع القضايا الخارجية، وليس هذا تفلتاً من المسؤولية، أو إنكاراً لآلام إخواننا، ولكنه إدراكاً لمدى قدراتنا، ولواقعنا السياسي، وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ** ﴾ [الأنفال : 72] كما أننا لا نطلق التهديدات الفارغة ضد الدول العظمى، أو نحاول نقل المعركة داخلها

---

[1] راجع – إن شئت – بحث: فتح القسطنطينية والملاحم.

عن طريق تفجير محطة قطار أو سوق تجاري فهذا الأسلوب عبث لا يليق بالعقلاء ! ولا يحقق أهداف تحرير الأمة أو إقامة الحق والعدل، بل هو تدمير للطاقات، وهدر للتضحيات.. كما أثبت الواقع التاريخي فشله، فليس هذا أسلوب نقل المعركة إلى داخل الدول العظمى.[1]

إن حركتنا وثورتنا ومشروع التغيير لا بد وأن يكون على قدر قدراتنا وتخطيطنا العملي الدقيق، وفق آليات صارمة، وليس مجرد أحلام، أو أوهام أو مجرد انتقام أو رد فعل غير مدروس، وضمن مشروع يسير في طريق رشد، وفق خطط تكتيكية ومرحلية واستراتيجية.

***

خامس عشر: لا للأيديولوجيا

الأيديولوجيا أو التعصب لفكرة من أخطر الأشياء على أي حركة إصلاح - لا سيما إذا كانت هذه الحركة باسم الإسلام أو تدعو إلى رسالة الإسلام - فتحول العمل السياسي لأيديولوجيا حزبية يقضي على العمل السياسي ويُخرج أجيال من المتعصبين للحزب ولرجاله، وتحول العمل المسلح إلى أيديولوجيا قتالية يقضي على العمل الجهادي ويُخرّج أجيالاً من المتعصبين للتنظيم وأفكاره ويُقتال لمجرد القتال، وتحول الثورة إلى أيديولوجيا يقضي على عدالتها وروحها وأهدافها ويحولها إلى صورة أخرى من صور البغي، فالتعصب يقتل الرسالة، ويُشرعن للبغي والظلم، فتصبح الثورة استبدال لطاغية بطاغية آخر !.

ولا بد أن تبقى الرسالة هي الروح الجامعة لا الأيديولوجيا لأن الإيديولوجيا سوف تُنشأ التعصب، والتعصب ينشأ الحسد، والحسد ينشأ البغي؛ فنعود إلى الظلم والعدوان مرة ثانية.

أما الرسالة فهي الإطار الجامع الذي يضم كل نشاط، ويشمل كل فكرة، ويحتوي كل طاقة.. بلا تعصب، وبلا أحادية، وبلا نقصان.. من يحقق مقاصد الرسالة، وغايتها فهو القائد. وكل ما يحقق مقاصد الرسالة فهو وسيلة لا غاية. فالرسالة تخاطب أمة، والأيديولوجيا تخاطب فئات، والقضية قضية أمة، والمعركة معركة أمة.. وليس مجرد قضية أفراد أو فئات.[2]

ويجب أن يكون مشروع التغيير والثورة في إطار العمل الرسالي، والروح الرسالية المحبة لكل مسلم، والخادمة لكل إنسان، والحاملة للرحمة لكل حي، والقائمة بالقسط والعدل والحق، والباغية للخير في كل مكان.

***

---

[1] راجع - إن شئت - مقال: تجربة.

[2] راجع - إن شئت - مقال: الأمة.. ما هي؟

هذا ما انتهى إليه علمي، وما رصدته وتعلمته من التجارب التاريخية والواقعية، وقد حاولت في هذه السطور أن أخرج برؤية متوازنة وشاملة، أسأل الله – سبحانه – أن تساعد في نهضة هذه الأمة، وعز الإسلام والمسلمين.. فإذا كان من خير وفتح فمن الله سبحانه وتعالى، وإن كان غير ذلك – والعياذ بالله – فمن نفسي والشيطان، وأعوذ بالله من شر نفسي وشر الشيطان، وأستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأتوب إليه.. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

***

المصادر والمراجع:

- إتحاف الخيرة المهرة، للبوصيري.
- أحكام القرآن، للجصاص.
- الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر.
- الأم، للشافعي.
- البحر الرائق، لابن نجيم المصري.
- البلدان وفتوحها، للبلاذري.
- التاج والإكليل، محمد بن يوسف المالكي.
- تاريخ الإسلام، للذهبي.
- تاريخ الطبري.
- تاريخ خليفة بن خياط.
- تبصرة الحكام، لابن فرحون المالكي.
- تفسير القرطبي.
- تفسير المنار ، محمد رشيد رضا.
- جامع الترمذي.
- جامع التواريخ، ترجمة د. فؤاد عبدالمعطي الصياد.
- جامع العلوم والحكم، لابن رجب.
- الجهاد.. الفريضة الغائبة، محمد عبد السلام فرج.
- الجوهرة، لأبي بكر الحنفي.
- حاشية الدسوقي على الشرح الكبير.
- الحاوي الكبير، للماوردي.
- الدر المختار، ابن عابدين.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلاني.
- دقائق أولي النهى، لمنصور البهوتي الحنبلي.
- دلائل النبوة، للبيهقي.
- الذخيرة، للقرافي.
- رسائل ابن حزم.

- السلوك لمعرفة الملوك، للمقريزي.
- سنن ابن ماجه.
- السنن الكبرى، للبيهقي.
- سنن النسائي الصغرى.
- سير أعلام النبلاء، للذهبي.
- شرح الباري، لابن حجر.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد القلقشندي.
- صحيح ابن حبان.
- صحيح البخاري.
- صحيح مسلم.
- الطبقات الكبرى، ابن سعد.
- العدة شرح العمدة، لبهاء الدين المقدسي.
- الفتاوى الكبرى، ابن تيمية.
- الفريضة الغائبة.. جذور وحوارات.. دراسات ونصوص، د. محمد عمارة.
- الفصل في الملل والنحل، لابن حزم.
- الكافي في فقه الإمام أحمد، لابن قدامة.
- كتاب الإيمان، لأبي عبيد القاسم.
- كتاب الردة، الواقدي.
- كتاب الشفا للقاضي عياض.
- كشف القناع عن متن الإقناع لمنصور البهوتي الحنبلي.
- اللباب، لجمال الدين المنبجي الحنفي.
- مجلة الأزهر.
- مسائل الإمام أحمد، إسحاق بن منصور.
- المستدرك على الصحيحين، للحاكم.
- مسند الإمام أحمد.
- مشكل الآثار للطحاوي.
- مصنف ابن أبي شيبة.
- مصنف عبدالرزاق الصنعاني.

- المعجم الأوسط للطبراني.
- المغني، لابن قدامة الحنبلي.
- المغول في التاريخ، د. فؤاد عبدالمعطي الصياد.
- الملل والنحل للشهرستاني.
- المهذب للشرازي.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، للمقريزي.
- نحو مجتمع إسلامي، سيد قطب.

* * *

